جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بالزقازيق

علاقة مملكة حماة
بدولة سلاطين المماليك

٦٤٨هـ - ٧٤٢هـ

دكتور
عبد الرحمن أمين صادق أبو راس
رئيس قسم التاريخ والحضارة

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٣ م

المقدمـــة :

عندما انتصر المماليك بقيادة السلطان المملوكى سيف الدين قطز سلطان مصر، على جحافل المغول فى معركة عين جالوت الشهيرة، سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م، تساقطت الممالك الأيوبية فى بلاد الشام كأوراق الخريف فى ليلة عاصفة ، حتى أصبحت لقمة سائغة وناعمة، في يد السلطان المملوكى المظفر سيف الدين قطز، وذلك دون أية معارك جانبية مع الأيوبيين ملوك الشام حينئذ .

فأصبح فى يد السلطان قطز زمام الأمور فى الأقاليم الشامية، فأخذ فى توزيع هذه التركة الكبيرة، والغنيمة الهائلة لأتباعه ، من أمراء المماليك التركية، دون مراعاة لحكامها السابقين من ملوك بنى أيوب .

واستثنى السلطان سيف الدين قطز من هذا التوزيع ثلاث ممالك أيوبية هى حماة، وحمص، والكرك[1]؛ فقد تركهن فى يد أصحابها السابقين من ملوك بنى أيوب؛ لأسباب سنذكرها فى حينها إن شاء الله .

ثم لما تولى السلطان بيبرس البندقدارى ملك الديار المصرية والشامية، لم يبق من هذه الممالك الثلاث فى يد أصحابها الأيوبيين إلا مملكة حماة. فأصبحت حماة منذ سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م المملكة الوحيدة ، التى بقيت فى يد أصحابها من أبناء الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، ابن أخى السلطان المجاهد الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب. أول ملوكها من بنى أيوب. وكان ملكها فى هذا التاريخ الملك المنصور الثانى

---

(١) الكرك بفتح الكاف والراء .

ناصر الدين محمد بن محمود الذى تولى ملك حماة سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م فى العصر الأيوبى ، وتوفى سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م فى العصر المملوكى .

وظلت مملكة حماة – على الرغم من وقوعها وسط الأراضى المملوكية فى بلاد الشام – تحت يد أصحابها من بنى المظفر عمر بن شاهنشاه الأيوبى حتى سنة ٧٤٢هـ/١٢٤١م، فيما عدا فترة صغيرة خرجت فيها حماة من يد أصحابها؛ لتصبح نيابة كغيرها من النيابات الشامية، يحكمها نواب سلطنة من الأمراء المماليك من قبل سلاطين المماليك فى مصر .

ومعنى ذلك أن مملكة حماة بقيت فى يد أصحابها الأيوبيين، بعد سيطرة سلاطين المماليك على بلاد الشام كلها تسعة وسبعين عاماً تقريباً .

ولقد كان ملوك حماة فى عصر سلاطين المماليك من الذكاء والفطنة، مما ساعدهم فى الإبقاء على هذه الأرضية المشتركة، التي ربطت مصيرهم بالدولة المملوكية حيناً من الزمان. وكان رائدهم فى رسم هذه السياسة العلاقية الملك المنصور الثانى محمد بن محمود صاحب حماة، الذى عاصر قيام دولة سلاطين المماليك فى مصر ، والذى استطاع بفضل براعته السياسية فى الحفاظ على مملكته من الضياع .

ولايفوتنى فى معرض التنويه عن دور الملك المنصور محمد فى بقاء مملكة حماة على خريطة بلاد الشام بعد سقوط أخواتها من الممالك الأيوبية بها، التنويه أيضاً عن الدور الكبير الذى لعبه الملك المؤيد أبو الفدا عماد الدين إسماعيل الأيوبى المؤرخ المعروف، والعالم البارع فى عدد من فروع العلم المعروفة فى ذلك الحين ، وصاحب الكتابين الشهيرين ، هما : «المختصرفى أخبار البشر» فى التاريخ، و«تقويم البلدان» فى الجغرافيا .

فقد جاهد أبو الفدا عماد الدين إسماعيل جهاداً طويلاً لإعادة مملكة أسلافه بحماة، بعد سقوطها فى الفترة من ٦٩٨هـ إلى ٧١٠هـ، حتى استطاع بفضل مابذله من جهد، وعمل دءوب متواصل ، مع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سلطان المماليك فى مصر من استعادة مملكة حماة، كما كانت وأفضل مما كانت فى سابق عهدها .

والجدير بالذكر أن أصحاب حماة من ملوك بنى المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبى قد تمكنوا من كسب ود واحترام بيبرس البندقدارى، والمنصور قلاوون. وذلك بفضل تجارب أصحاب حماة السابقين مع كبار ملوك بنى أيوب فى مصر والشام، وحنكتهم السياسية الموروثة عن طريق أسلافهم، مما سهل عليهم التعامل مع سلاطين المماليك السابق ذكرهم في سلاسة ويسر .

ولاشك أن أسلوب إدارة العلاقات بين دولة المماليك، ومملكة حماة، كان له الدور الكبير والفعال، فى خلق أرضية مشتركة بين الطرفين، ظلت باقية ومتماسكة إلى حينها؛ طالما كانت هناك إرادة حقيقية بين الطرفين فى الإبقاء عليها بل وزيادة إنمائها .

والملاحظ مما سبق أن استمرار حماة مملكة هذه المدة الطويلة نسبياً بقيادة ملوكها الأيوبيين، فى ظل السيطرة التامة لسلاطين المماليك على الديار المصرية والبلاد الشامية كلها، كان من غرائب هذا العصر، ومن عجائبه الملفتة للنظر والانتباه .

وأغرب مافى هذه العلاقة ، وبشكل مثير لكثير من التساؤلات؛ أن كبار سلاطين المماليك ، والذين اتسموا بالقوة، والسيطرة على مقاليد الحكم فى الدولة المملوكية كانوا أكثر حرصاً فى مد جسور الود والاحترام بينهم

وبين ملوك بنى المظفر الأيوبيين فى حماة، وذلك على الرغم من أنه كان فى يدهم جميع الصلاحيات التى كانت تمكنهم من القضاء على هذه المملكة الأيوبية الصغيرة، إن أرادوا ذلك .

وإذا كان الأمر على هذا النحو من جانب كبار سلاطين المماليك فى مصر حيال علاقاتهم مع ملوك بنى أيوب فى حماة؛ فإن الأغرب والأعجب أن الأمر لم يكن كذلك فى عصر صغار سلاطين المماليك وضعافهم؛ إذ أنه فى عصرهم . قد انقطعت حبال المودة، وتهدمت جسورها، وأزيل من حماة ملوكها، مع أنهم كانوا فى نفس الوقت لايملكون شيئاً من الصلاحيات ، بل ولايملكون حتى أمر أنفسهم .

والمثير للدهشة أيضاً فوق ماتقدم اختلافات المؤرخين فى حال أصحاب حماة من بنى المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبى ، فيما إذا كانوا ملوكاً يملكون ، أم كانوا نواباً فى ثياب الملوك وألقابهم ؟

والحق أن غرابة هذه الصورة العلاقية ، والفريدة من نوعها بين كل من سلاطين المماليك وأصحاب مملكة حماة، قد شدت انتباهى، وأثارت فى أعماقى تساؤلات جمة وغفيرة منذ زمن بعيد. وكلما شغلت عنها بأمور وموضوعات، عادت تجذبنى بقوة إليها، وتحاصرنى فيها، مثيرة وملحة بتساؤلاتها واستفهاماتها؛ حتى أصبحت بينى وبين مملكة حماة فى عصر سلاطين المماليك علاقة وجدانية قوية لاانفكاك منها، إلا بكشف الستار عن هذه العلاقة الفريدة والمثيرة ، التى ربطت بين سلاطين المماليك ، وأصحاب حماة من بنى المظفر عمر بن شاهنشاه الأيوبى .

ويجب أن ندرك تماماً بادئ ذى بدء، أن الكتابة حول أسس بقاء مملكة صغيرة كحماة، فى ظل دولة فتية وقوية كدولة سلاطين المماليك فى مصر

والشام، تحتاج إلى دراسة متأنية، وخوض فى أعماق الأحداث الجارية فى هذا العصر، وكشف لأغوار العلاقات الدائرة بين هذه وتلك؛ وصولاً إلى القواعد الأساسية التى بنت عليها مملكة حماة بقاءها فى الوجود. وذلك فى ظل دولة سلاطين المماليك، القابضة على زمام الأمر مصراً وشاماً، وغيرهما من البلاد جنوباً وشاماً، بخلاف ماكان لها من نفوذ وهيمنة، ليست على الديار المصرية والشامية فقط ، بل على كثير من الدول المجاورة لها، والبعيدة عنها .

وأرى أن إلقاء الأضواء بتعمق وفهم، على العلاقات المتبادلة بين ملوك حماة، وسلاطين المماليك فى مصر من ناحية ، وعلى الأحداث الجارية من ناحية أخرى، ستعطينا دون شك تجربة فريدة من نوعها، وشكلاً نادراً للعلاقات السياسية الملوكية، فى عصر من أهم العصور التاريخية فى مصر والشام .

هذا وبالله التوفيق

د. عبد الرحمن أبو راس

التمهيد

حماة وتاريخها
بين العصر الأيوبى والمموكى

موقع حماة:

حماة مدينة عظيمة وشهيرة، وقاعدة هامة من القواعد الإسلامية فى بلاد الشام. وتقع على ضفاف نهر العاصى، بين مدينتى حمص وحلب على بعد أربعين ميلاً شمالى حمص[(١)] .

ويحدها جنوباً مدينة الرستن، وشمالاً آخر حدود المعرة[(٢)] ويحدها شرقاً البر آخذاً على سلميه، وغرباً مصياف ومضافاتها وقلاع الدعوة[(٣)] .

وحماة من المدن القديمة تاريخياً، وقد ورد ذكرها في التوراة[(٤)]. وأصبحت مدينة إسلامية منذ بداية الفتوحات فقد فتحت فى موجة الفتوحات الأولى فى بلاد الشام على يد الصحابى الجليل القائد أبى عبيدة عامر بن الجراح رضى الله عنه[(٥)] .

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ، باب الحاء، أبو الفدا - الملك المؤيد : تقويم البلدان ص٢٦٤، ٢٦٥ محمد كرد على : خطط الشام ص٥٣ ، وانظر الأطلس العربى ص٢٨ .

(٢) هى المعروفة بمعرة النعمان بلدة كبيرة بين حلب وحماة وتنسب إلى النعمان ابن بشير الصحابى . وهناك معرة أخرى اسمها معرة مصرين : وهى بليدة قريبة من حلب، والمعرة مطلقة تعنى معرة النعمان ياقوت: معجم البلدان، باب الميم ، القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص١٤١ .

(٣) هى التى كان يسكنها طائفة الفداوية من الشيعة الإسماعيلية، وهى : الرصافة والخوابى، والقدموس، والكهف، والمينقة، والعليقة بالإضافة إلى مصياف، القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص١٤٦، ١٤٧ .

(٤) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ٤ ص٦١ .

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان جـ١ ص١٥٦ .

وعلى الرغم من قدم مدينة حماة، إلا أنها لم يكن لها قديماً ذكر كبير ولاصيت، بينما كانت تحظى مدينة حمص الواقعة فى جنوبيها بالشهرة والذيوع إذ كانت قاعدة رومية هامة قبيل الفتح الإسلامى لها(١) .

ثم بدأ يعلو شأن مدينة حماة فى عصر دولة عماد الدين زنكى(٢) منذ استولى عليها فى سنة ٥٢٣هـ/١١٢٨م(٣) .

وبلغت حماة قمة شهرتها وذيوعها بعد أن آلت إلى ملوك بنى أيوب سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م(٤) أيام كبير الأيوبيين السلطان الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى. حيث مصرها ملوك هذه الأسرة بالأبنية العظيمة ، والقصور الفائقة ، والمساكن الفاخرة وتأمير الأمراء، وتجنيد الأجناد فيها، وعظموا أسواقها ، وزادوا فى غرسها. وجلبوا إليها من أرباب الصنائع كل من فاق فى فنه إلى أن كملت محاسنها، وصارت معدودة فى أمهات البلاد، وأحاسن الممالك، حتى غدت وليس فى الممالك الشامية بعد دمشق لها نظير، ولايدانيها فى لطف ذاتها من مجاوراتها قريب ولابعيد، وذلك لخلاف ماكان حول حماة من مروج فيحاء ممتدة ، يكثر فيها مصايد الطير والوحش(٥).

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان جـ١ ص١٥٥، القلقشندى : صبح الأعشى جـ٤ ص١٣٩، ١٤٠ . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى جـ١ ص٢٢٨، ٢٢٩ .

(٢) هو مؤسس الدولة الأتابكيه التى حكمت فى الموصل وحلب، أحمد السعيد : تاريخ الدولة الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة جـ٢ ص٣٤٣ - ٣٤٦ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب جـ٢٧ ص١٢٦ .

(٤) أبو شامة : كتابة الروضتين فى أخبار الدولتين جـ١ ق٢ ص٦٩٧، ٦٠٨.

(٥) العمرى : التعريف بالمصلح الشريف ص٨٤ .

وكانت لمدينة حماة فى العصرين الأيوبى والمملوكى ثلاثة أعمال رئيسية، هى :

١ - عمل برها : وهو ماظاهرها وماحولها .

٢ - عمل بارين : ويقال لها أيضاً «بعرين» وهى بلدة على مرحلة من حماة، فى الغرب منها بميلة يسيره إلى جهة الجنوب.

٣ - عمل المعرة، وتعرف بمعرة النعمان ، إضافة إلى الصحابى النعمان بن بشير الأنصارى المتوفى سنة ٦٤هـ/٦٨٤م[١]، وتقع المعرة بين حماة وحلب ، وهى مدينة جليلة عامرة، كثيرة الفواكه والثمار الخصب[٢] .

حماة بين العصرين :

لما استقرت أغلب الشام التابعة لبنى زنكى تحت يد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى، ومنها مدينة حماة سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م، كما ذكرنا ذلك سابقاً، رتب السلطان صلاح الدين خاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمى حاكماً على حماه. وظل بها إلى أن مات فى سنة ٥٧٣/ ١١٧٧م[٣].

---

(١) عن ترجمته انظر، الطبرى : تاريخ الطبرى جـ٥ ص٥٣٩، ابن العماد : شذرات الذهب جـ ص٧٢ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٤ ص١٣٩ - ١٤٢ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ١ ق ٢ص٧٠٧ ، الذهبى : العبر جـ٣ ص ٦٥، ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٢ ص٢٩٩ .

بداية مملكة حماة:

بعد موت شهاب الدين الحارمي وفي السنة التالية أي في سنة ٥٧٤هـ أعطى السلطان صلاح الدين الأيوبي حماه لابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه ابن أيوب. وكان أحد القادة الكبار في صفوف جيش الناصر صلاح الدين الأيوبي، وأحد الأبطال المشاهير. وكان الناصر صلاح الدين يحبه، ويعتمد عليه في كثير من مهام دولته، في الحرب والسلام [١].

وأصبحت حماة بداية من سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م، مملكة مستقرة للمظفر تقي الدين عمر الأيوبي وأولاده من بعده، إلى أن تم عزل آخر ملوكها في سنة ٧٤٢هـ/١٣٤١م؛ وذلك فيما عدا اثنى عشر عاماً، مابين ٦٩٨ و ٧١٠ هـ حيث خرجت فيها حماة عن حكم سلالة تقي الدين عمر وأصبحت نيابة [٢] كغيرها من النيابات الشامية ، وبالتالي حكمت هذه الأسر حماة حوالي مائة وستة وأربعين عاماً [٣] .

وقد انفردت حماة في ظل هذه الظروف ، بخاصية فريدة من نوعها عن بقية مدن الشام؛ إذ أنها ظلت مملكة قائمة ومستقرة دون غيرها من الممالك الأيوبية في البلاد الشامية، حتى في ظل عصور أقوى سلاطين المماليك

(١) الذهبي : العبر في خبر من غبر، حـ٣ ص٦٣ - ٦٥ ، ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، جـ٤ ص٢٨٩ .

(٢) كانت الولاية الكبيرة في عصر سلاطين المماليك تسمى نيابة ، وحاكمها يسمى نائب سلطنة .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ٤ ص١٧٣ ، ١٧٤ ، زامباور: معجم الأسرات الحاكمة جـ١ ص١٥٣ .

التركية من أمثال : السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى، والسلطان المنصور قلاوون، وابنه السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، بينما كانت الممالك الأيوبية فى بلاد الشام قد انقرضت، ولم يعد لإحداها وجود منذ بداية سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م[١] .

وينقسم ملوك بنى أيوب فى حماة من حيث الحكم إلى ثلاثة أقسام

أولاً: قسم منهم حكم فى ظل الدولة الأيوبية . وهم

١ - المظفر الأول تقى الدين عمر بن شاهنشاه من ٥٧٤ - ٥٨٧هـ/ ١١٧٨ - ١١٩١م.

٢ - المنصور الأول محمد بن عمر ٥٨٧ - ٦١٧هـ/١١٩١ - ١٢٢٠م .

٣ - الملك الناصر صلاح الدين قلج أرسلان بن محمد[٢] ٦١٧-٦٢٦هـ/ ١٢٢٠- ١٢٢٩م .

---

(١) لايدخل فى هذا الإحصاء الفرع الأيوبى فى حصن كيفا، والذى امتد حكمهم بها حتى سنة ٩٣٠هـ/١٥٢٣م فيما عدا بعد الفترات؛ لأن حصن كيفا من بلاد الجزيرة، وخارجة عن بلاد الشام موضوع البحث، أحمد السعيد: تاريخ الدولة الإسلامية، جـ١ ص١٥٠ الأسرة رقم ٥٤ ، وانظر عن الممالك الأيوبية من ص١٣٩ - ١٥٨ .

(٢) اغتصب المذكور الملك من أخيه المظفر الثانى محمود ولى العهد ، مستغلاً وجوده عند موت والده بالديار المصرية فى نجدة للملك الكامل الأيوبى ، كبير بنى أيوب ، ثم بعد فترة عزل الملك الكامل صلاح الدين قلج أرسلان من ملك حماة، وعين تقى الدين محمود فى الملك ، أبو الفدا: المختصر ، جـ٣ ص١٢٤، ١٢٦، ١٤٣- ١٤٥ .

٣ - المظفر الثانى تقى الدين محمود بن محمد ٦٢٦-٦٤٢هـ/ ١٢٢٩-١٢٤٤م .

وقد بلغ حكم هذا القسم من الملوك ثمانية وستين عاماً .

ثانياً : قسم آخر حكم تحت ظل كل من الدولتين الأيوبية والمملوكية، وهو الملك الخامس في ثبت هذه الأسرة، وهو :

٥ - الملك المنصور الثانى محمد بن محمود بن محمد ٦٤٢-٦٨٣هـ/ ١٢٤٤-١٢٨٤م .

وقد حكم هذا الملك واحداً وأربعين عاماً تقريباً ، منها تسع سنوات فى العصر الأيوبى ، واثنين وثلاثين عاماً فى عصر سلاطين المماليك، وهو صاحب دور كبير فى رسم سياسة الأسرة وعلاقتها مع الدولة المملوكية .

ثالثاً : قسم أخير حكم تحت ظل دولة سلاطين المماليك، ويبدأ حكم هذا القسم من سادس ملوك بنى المظفر

٦ - الملك المظفر الثالث محمود بن محمد بن محمود بن محمد بن عمر ٦٨٣-٦٩٨هـ/ ١٢٨٤ - ١٢٩٤م .

٧ - الملك المؤيد عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن على بن المظفر الثانى تقى الدين محمود ٧١٠ - ٧٣٢هـ/ ١٣١٠ - ١٣٤١م .

٨ - الملك الأفضل ناصر الدين محمد بن إسماعيل ٧٣٢-٧٤٢هـ/ ١٣٣١ - ١٣٤١م[1] .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٤ ص١٧٢ - ١٧٤، زامباور: معجم الأسرات الحاكمة ، جـ١ ص١٥٣، أحمد السعيد: تاريخ الدول الإسلامية جـ١ ص١٣٩ - ١٦٢ .

ونرى أن هذا القسم الأخير قد حكم سبعة وأربعين عاماً. ونتبين من كل ماتقدم أن هذه الأسرة قد حكمت حماة سبعة وسبعين عاماً فى ظل الدولة الأيوبية، وتسعة وسبعين عاماً تقريباً فى دولة سلاطين المماليك. فيكون مجموع حكمهم فى العصرين الأيوبى والمملوكى مائة وستة وأربعين عاماً تقريباً - كما ذكرنا سابقاً .

آخر الممالك الأيوبية فى الشام:

كان الهجوم المغولى الكاسح لبلاد الشام سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م وذلك بعد قضائهم على الخلافة العباسية فى سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨م، هو بداية النهاية للحكم الأيوبى فى بلاد الشام[١]، ثم كان انتصار السلطان المظفر سيف الدين قطز[٢]، على المغول فى موقعة عين جالوت[٣] الشهيرة، فى يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م[٤] هو النهاية الحقيقية للممالك الأيوبية فى بلاد الشام .

---

(١) النويرى : نهـاية الأرب جـ٢٩ ص٣٨١ - ٣٩١، المقـريزى : السلوك جـ١ ص٤٢٢ - ٤٢٥ .

(٢) هو قطز بن عبد الله الشهيد ، الملك المظفر سيف الدين المعزى، وقتل على يد الظاهر بيبرس ٦٥٨هـ، محمد بن شاكر الكتبى: فوات الوفيات ، جـ٢ ص٢٦٧ رقم ٣٥٣ .

(٣) بلدة بين نابلس وبيسان من أعمال فلسطين ، ياقوت الحموى: معجم البلدان ، باب العين .

(٤) العينى: عقد الجمان ، جـ١ ص٢٤٣، فايد حماد عاشور: العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ، ص٥١ - ٥٤، عبد السلام عبد العزيز فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى إيران ، ص١٤٣ - ١٤٨.

فإثر هذا الانتصار الحاسم دخل السلطان سيف الدين قطز دمشق دخول الفاتحين ، فى الثانى من شوال من نفس العام، ولم يكن أمام بقايا الملوك الأيوبيين غير تقديم فروض الطاعة والولاء للسلطان سيف الدين قطز؛ وذلك بعد أن أضاعوا حقهم الشرعى فى الملك نتيجة لتقاعسهم عن صد المغول عن بلادهم، واشترك بعض ملوكهم في صفوف المغول فى معركة عين جالوت ضد إخوانهم المسلمين[١] .

ومن هنا جلس السلطان قطز بدمشق يرتب شئون ممالك الشام؛ وذلك حسب الواقع المؤلم الذى أصبح عليه ملوك بنى أيوب، ودون النظر لماضى هذه الأسرة التى كتبت اسمها فى التاريخ بأحرف من نور؛ نتيجة لجهادهم المشرف ضد قوى الصليبية الباغية، دفاعاً عن الإسلام والمسلمين[٢] .

ففرق السلطان قطز ممالك بنى أيوب فى بلاد الشام، كيفما ترآى له رأيه وتقديره ، ولم يبق من ملوك بنى أيوب فى الشام إلا على الملك الأشرف مظفر الدين موسى[٣] فى مملكته بحمص

---

(١) العينى : عقد الجمان، جـ١ ص٢٣٥ - ٢٤٤، سعيد عاشور : العصر المماليكى ص٣٦.

(٢) كان الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبى وأسرته دور كبير فى الجهاد ضد الصليبيين .

(٣) هو الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن إبراهيم المتوفى سنة ٦٦٢ هـ، ولم يكن هذا الملك من بنى أيوب بل كان من بنى شيركوه عم صلاح الدين، ولكنه يذكر تجاوزاً فى بنى أيوب، ابن العماد : شذرات الذهب ، جـ ٥ص٣١١، أحمد السعيد : تاريخ الدولة الإسلامية ، جـ١ ص١٤٨ رقم ٥٢ .

والرحبة[١] وتدمر[٢]، بعد أن أتى المذكور إلى السلطان طائعاً تائباً، طالباً الأمان، فأمنه ورحب به وأكرمه، وكان قبيل ذلك نائباً لهولاكو فى بلاد الشام[٣].

كذلك ترك السلطان قطز الكرك[٤] فى يد صاحبها الملك المغيث ابن العادل الثانى الأيوبى[٥].

أما الملك المنصورالثانى محمد الأيوبى صاحب حماة، فقد كان له تقدير خاص عند السلطان قطز، ومن جاء بعده من المماليك ، فأحسن إليه السلطان المملوكى ، وأقره على مملكة حماة وبارين، وأعاد له المعرة؛ وكانت

---

(١) هى الرحبة الجديدة التى استحدثها شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص، وتقع جنوبى رحبة مالك بن طوق بعد خراب الأخيرة، القلقشندى: صبح الأعشى ، جـ٤ ص١١٥.

(٢) بلدة قديمة من أعمال حمص من شرقيها، القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص١١٤ .

(٣) ابن الوردى : تتمة المختصر، جـ٢ ص٢٩٤ - ٢٩٧، المقريزى : السلوك جـ١ ص٤٣٣ .

(٤) الكرك ، بفتحتين : قلة حصينة فى نواحى البلقاء، وهى غير الكرك بسكون ثانيه، فهى قرية فى أصل جبل لبنان ، صفى الدين البغدادى : مراصد الاطلاع، جـ٣ ص١١٥٩ .

(٥) هو الملك المغيث فتح الدين عمر ابن العادل أبى بكر بن الكامل محمد الأيوبى، قبض عليه الظاهر بيبرس فى سنة ٦٦١هـ، وكان آخر العهد به ، ابن الوردى: تتمة المختصر، جـ٢ ص٣٠٩، ابن العماد : شذرات الذهب ، جـ٥ ص٣٠٥ .

فى يد الحلبيين منذ سنة ٦٣٥هش/ ١٢٣٧م[١].

ثم لم ينتـه عـام ٦٦٢ هـ حتى خلت بلاد الشـام من الممـالك الأيوبيـة فيـما عدا مملكة حماة حيث قبض الملك الظاهر بيبرس البندقدارى على الملك المغيث صـاحب الكرك فى سنة ٦٦١هـ ١٢٦٢م، وكـان آخر العـهـد به[٢]. وكذلك بموت الملك الأشرف مظفر الدين مـوسى صاحب حمص فى أول سنة ٦٦٢ هـ/ ١٢٦٣م[٣] .

وتسلم الملك الظاهر بيـبـرس الكرك من أولاد الملك المغـيث وجـعلهـا نيابة، أما حمص فلم يكن لملكها الأشرف موسى عقب، فتحولت حمص أيضاً إلى نيابة من نيابات البلاد الشامية[٤] .

وبذلك خلت بلاد الشام من الممالك الأيوبية فيما عدا مملكة حماة التى ظلت قائمة - كما ذكرنا سابقاً - حتى سنة ٧٤٢هـ ١٣٤١م، فيـما خلا اثنى عشر عاماً .

---

(١) العينى : عقد الجمان جـ١ ص٢٤٥، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥ ص١٨٨، ١٨٩.

(٢) قيل : قتل الملك المغيث بعد وصوله إلي القاهرة مقبوضاً عليه فى نفس العام، وقيل فى سنة ٦٦٢هـ، وهناك أقوال متعددة لأسباب القبض عليه وطريقة قتله، النويرى : نهـاية الأرب جـ٢٩ ص٣٩٢ - ٤٠٥، العينى : عـقـد الجـمـان جـ١ ص٣٧٠، ٣٧٢، المقريزى : السلوك حـ١ ص٥٢٢ .

(٣) اتفقت أغلب المصادر على أن موت الأشرف كان فى هذا العام ، وقيل فى الذى قبله ، النويرى: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٤١٢، الذهبى: العبر جـ٣ ص٣٠٦، ابن كـثـير: البداية والنهـاية جـ١٣ ص٢٤٣، ابن الوردى: تتـمـة المخـتـصـر جـ٢ ص٣١٠، العينى : عقد الجمان جـ١ ص٣٧٢، ٣٧٣.

(٤) النويرى : نهاية الأرب جـ٢٩ ص ٤١٢ .

ولم يتأت بقاء أسرة الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبى فى مملكة حماه دون غيرها من الأسر الأيوبية فى الممالك الشامية فى عصر سلاطين المماليك من فراغ، وكذلك لم يكن التقدير الكبير الذى حظى به ملوك هذه الأسرة، وعلى رأسهم الملك المنصور الثانى الذى عاصرقيام دولة سلاطين المماليك من كبار ملوكها ضربة حظ، بل كان دون شك وراء هذا مايبرره ويزكيه، ولابد أن يكون هناك من الأسباب مايبيحه ويسانده.. وهذا ماسوف نتلمس طريقه فى حديثنا المقبل .

الفصل الأول

بين المنصور محمد وسلاطين المماليك

تولى الملك المنصور ناصر الدين محمد الثانى ملك حماة بعد وفاة والده الملك المظفر محمود ، فى جمادى الأولى سنة ٦٤٢هـ /١٢٤٤م. وكان عمره آنذاك عشر سنوات[١].

واستمر الملك المنصور فى ملك حماة حتى وفاته فى شوال من سنة ٦٨٣هـ ١٢٨٤م [٢] . وقد عاصر صاحب حماة أثناء حكمه المديد غروب شمس الدولة الأيوبية، وشروق فجر دولة سلاطين المماليك . فكان شاهد عيان لأفول دولة ، وبزوغ أخرى.

وعلى الرغم من أن الملك المنصور محمد صاحب حماة ، قد تقلد الملك فى سن صغيرة؛ إلا أن طول مدة حكمه، التى وصلت الى أكثر من إحدى وأربعين سنة قد صقلت مواهبه، وعمقت تجاربه. ووضح ذلك عيانا فى براعته السياسية، وحسن تقديره لحجم ملكه، وحجم ماحوله من الممالك والبلدان ، ومعرفة قدر قوته ، وقوة من حوله من الملوك والسلاطين.

ومن هنا قاد المنصور مملكته الصغيرة كربان حاذق وسط البحار المضطربة ، والأمواج العاتية ، حتى وصل بها إلى بر الأمان، بينما تكسرت الممالك الأيوبية فى بلاد الشام واحدة فواحدة ، وبلعتها الأمواج العاتية. وتعامل المنصور صاحب حماة أثناءها مع بعض كبار سلاطين المماليك، وانتزع بفضل حنكته حبهم واحترامهم جميعا .. وسنبحر على متن سفينة هذا الربان الحاذق لنشاهد معا فى الصفحات القادمة براعته السياسية.

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، جـ٥ ص ٣٤٢-٣٤٥.

(٢) ابن حبيب : درة الأسلاك ، ص ٢٧٧.

أ- بين المنصور محمد والسلطان عز الدين أيبك :

لقد وضحت براعة المنصور السياسية، وحسن تقديره للأمور منذ أول قيام دولة سلاطين المماليك فى مصر، تحت قيادة الملك المعز عز الدين أيبك التركمانى، سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م(١) . فعندما تجمعت القوى الأيوبية فى بلاد الشام بقيادة الملك الناصر صلاح الدين يوسف(٢) ، صاحب دمشق وحلب ، وكبير بنى أيوب فى بلاد الشام، وذلك للتحرك إلى مصر لإعادتها للبيت الأيوبى، لم يشاركهم الملك المنصور صاحب حماة فى حركتهم ؛ بدليل أن اسم المنصور محمد لم يأت فى ثبت الذين خرجوا من ملوك بنى أيوب إلى مصر.

يقول أبو الفدا عماد الدين إسماعيل فى هذا الشأن : " وفى هذه السنة سار الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الملك العزيز بعساكره من دمشق، وصحبته من ملوك أهل بيته الصالح إسماعيل بن العادل بن أيوب، والأشرف موسى صاحب حمص ، وهو حينئذ صاحب تل باشر(٣)

---

(١) العينى : عقد الجمان ، جـ١ ص ٣٢ ومابعده .

(٢) هو الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الملك العزيز ابن الملك الظاهر ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، الذى قتله هولاكو سنة ٦٥٩ هـ انتقاما لهزيمته فى معركة عين جالوت، النويرى نهاية الأرب ، جـ٢٩ ص ٣٦٦- ٣٩٢، فايد حماد :العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ، ص ٥٩.

(٣) تل باشر : قلعة حصينة وكورة واسعة فى شمال حلب ، بينها وبين حلب يومان صفى الدين البغدادى : مراصد الاطلاع جـ١ ص ٢٦٩.

والرحبة وتدمر[1] ، والمعظم تورانشاه ابن السلطان صلاح الدين ، وأخو المعظم المذكور نصرة الدين، والأمجد حسن ، والظاهر شاذى أبناء الناصر داود ابن الملك المعظم عيسى ابن العادل بن أيوب، وتقى الدين عباس ابن الملك العادل بن أيوب ، ومقدم الجيش شمس الدين لؤلؤ الأرمنى"[2].

وقد أيد بعض المؤرخين[3] ماذهب إليه عماد الدين أبو الفدا ومعنى هذا أنه لو كان الملك المنصور صاحب حماة ضمن هؤلاء الملوك؛ لما أغفل المؤرخون ذكر اسمه ، بعد أن ذكروا فى تواريخهم أسماء نوافل بنى أيوب ، من الذين يحملون لقب ملك فقط بلا مملكة.

وقد خرجت جموع بنى أيوب بالفعل ، واتجهت نحو مصر حتى التقت بالجيش المملوكى بقيادة عز الدين أيبك عند بسموط القريبة من العباسية[4]، وذلك فى العاشر من ذى القعدة سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ، وانتهت بهزيمة ساحقة لبنى أيوب [5].

---

(١) عن الرحبة وتدمر انظر ماسبق ص١٩ .

(٢) كان مدبرا للجيوش الحلبية وأسر فى هذه المعركة وقتل ، العينى : عقد الجمان ، جـ١ ص ٤٢ ، ٤٨ ، ٤٩.

(٣) ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ٢ ص ٢٦٩ ، المقريزى : السلوك ، جـ١ ص ٣٧٢ ، العينى : عقد الجمان ، جـ ١ ص ٣٩.

(٤) بليدة بالشرقية فى طريق القاصد من بلاد الشام لمصر ، ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع جـ٢ ص ٩١٣.

(٥) العينى : عقد الجمان جـ ١ ص ٣٩-٤٢.

ودون شك كان هذا الموقف الذى انفرد به المنصور صاحب حماة، عن بنى عمومته من الأيوبيين، فى عدائهم للمماليك ، قد قرب إليه قلوب كبار المماليك ، وجعلهم يتوددون إليه ويخطبون وده، حتى إن الأمير الكبير فارس الدين أقطاى ، كبير المماليك البحرية، وأقوى المنافسين لعز الدين أيبك، خطب ابنة الملك المظفر، وأخت الملك المنصور صاحب حماة . فأجابه المنصور إلى ذلك، وعقد النكاح، وأرسل أخته فى تجمل عظيم إلى مصر، ووصلت فى طريقها إلى دمشق ، إلا أن الأمير فارس الدين أقطاى قتل بتدبير من الملك المعز قبل أن يفرح بلقاء عروسه.

وكان الملك عز الدين أيبك فى تخوف دائم من الأمير فارس الدين أقطاى، لما كان يراه من إزدياد عظمته ، والتفاف المماليك البحرية حوله. وزاد على ذلك ، أنه لما خطب الأمير فارس الدين أخت الملك المنصور ، طلب من الملك المعز أن يسكن القلعة مع عروسه ؛ لكونها من بنات الملوك ، ولايليق سكنى مثيلاتها فى البلد، فازداد خوف المعز منه، فأخذ فى الكيد له والتدبير عليه حتى قتله ، كما تقدم(١).

ويبدو أن شخصية الملك المنصور وعظمته ، لم يجذب فيمن جذب الأمراء الكبار فقط. بل أن الملك المعز عز الدين أيبك أراد أن يخطب وده أيضا، فأرسل المعز إلى كل من المنصور صاحب حماة، والملك الرحيم بـــدر

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ٢٩ ص ٤٣٠ ، المقريزى السلوك جـ١ ص ٣٨٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٧ ص ١١ ، ١٢.

الدين لؤلؤ [١] صاحب الموصل، يخطب أختيهما [٢]. ولكن كان ذلك وبالا عليه أيضا، حيث أدى إلى قتله بتدبير من زوجته شجر الدر [٣].

وهكذا كانت بداية العلاقة بين صاحب حماة وسلاطين المماليك أيام الملك المعز أيبك التركماني، فلم يعاد المنصور محمد صاحب حماة المماليك عند قيام دولتهم كما عاداهم بنو أيوب ، فتلقى منهم في مقابل ذلك كل الاحترام، وخطب وده ، إلى درجة أملهم في مصاهرته.

٢- بين المنصور والسلطان قطز :

مضت سنوات على ذلك، حتى ظهر الخطر المغولي على مشارف بلاد الشام بقيادة هولاكو ، بداية من ٦٥٧هـ / ١٢٥٨م؛ وذلك بعد سقوط بغداد عاصمة الخلافة العباسية في السنة التي سبقتها [٤] ، وبات بنو أيوب في امتحان صعب بين اختيارين كلاهما مر فإما الجهاد الذي قد يكون فيه هلاكهم، وإما الذل والاستسلام، والمشي في ركاب العدو .. وأختار أغلب

---

(١) توفي المذكور سنة ٦٥٧هـ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، جـ٥ ص ٢٨٩.

(٢) هذا الخبر انفرد به المقريزي فقط، بينما اجتمع المؤرخون بأن المعز خطب ابنة بدر الدين لؤلؤ . المقريزي : السلوك ، جـ١ ص ٣٩٨، النويري : نهاية الأرب ؛ جـ٢٩ ص ٤٢٩ ، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، جـ٦ ص ٣٧٥.

(٣) عن ذلك انظر المصادر السابقة في الأجزاء والصفحات نفسها.

(٤) ابن الوردي : تتمة المختصر ، جـ٢ ص ٢٨٢ - ٢٨٤.

بنى أيوب الاختيار الأخير ، وأخذوا فى مدارات المغول ومصانعتهم، ومع ذلك لم يسلموا من وحشيتهم. وسقطت ممالكهم تباعا فى يد هولاكو فى سنة ٦٥٨هـ / ١٢٥٩م[١].

وخرج عن ذلك الملك المنصور صاحب حماه، فلم يصانع المغول، ولم يدارهم ، ولم يكن فى استطاعته فى نفس الوقت منازلتهم منفردا، فتسحب بجيشه أولا إلى دمشق، فلم يجد فيه رجاء ، فاتجه عندئذ بمن معه إلى مصر ، فأرسل المظفر قطز- الذى أصبح سلطانا على مصر-فى ذى القعدة سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨م سنجقا [٢]يليق بمكانة المنصور كملك، ثم تلقاه بأحسن مايكون الاستقبال ، مطيبا خاطره لفراق بلاده.

فلما خرج السلطان قطز لملاقات المغول، خرج معه الملك المنصور صاحب حماه، وأخوه الملك الأفضل على[٣]، وعند عين جالوت تم انتصار الجيوش الإسلامية بقيادة السلطان قطز. ووقعت بذلك بلاد الشام كلها فى قبضته[٤].

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ، جـ٢٧ ص ٣٨٦ ، ٣٩١ ، جـ ٢٩ ص ٣٨١.

(٢) السنجق : رايات صفر تربط فى أطراف الرماح، وهى من رسوم الملك وآلاته، ويحمل السنجقدارية السنجق أمام الملوك فى مواكبهم، القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٤ ص ٨، سعيد عاشور: العصر المماليكى ص٤٤٨ ، عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ، جـ٢ ص ٩٤.

(٣) هو الملك نور الدين على بن محمود ، والد الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل، توفى سنة ٦٩٢هـ /١٢٩٢م، ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٣ ص ٣٣٤ ، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، جـ٨ ص ١٦٢.

(٤) أبو الفدا : المختصر ، جـ٣ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦.

وكان لخروج الملك المنصور فى صحبة السلطان قطز، أبلغ الأثر فى نفس السلطان؛ حتى إنه عندما استقر بدمشق ، وأخذ فى تفريق الممالك الشامية، لم ينس تقديرو لصاحب حماة ، فكتب له دستورا باستقراره فى ملك حماة ومضافاتها كعهده سابقا، بعد أن أعاد إليه أيضا المعرة التى كانت قد خرجت من يده سنة ٦٣٥هـ حيث استولى الحلبيون عليها[١]

فعاد المنصور إلى بلاده مظفرا، فهنأه الشيخ شرف الدين شيخ الشيوخ[٢] بهذا النصر الكبير وبعود المعرة بقصيدة ، منها :

رعت العدو فضمنت ثل عروشها	ولقيتها فأخذت ثل جيوشهـــا
نازلت أملاك التتار فأنزلـــت	عن فحلها قسرا ومن أكديشهـا
فغدا لسيفك فى رقاب كماتهـا	حصد المناجل فى يبيس حشيشها
فقت الملوك ببذل ماتحويـــه إذ	ختمت خزائنها على منقوشهـــا

ومنها :

وضربت سكتها التى أخلصتهـا	عما يشوب النقد من مغشوشها
وكذا المعرة إذا ملكت قيادهـا	دهشت سرورا سار فى مدهوشها
لازلت تنعش بالنوال فقيرهـــا	وتنال أقصى الأجر من منعوشها
طربت برجعتها إليك كأنـــا	سكرت بخمرة جاشها أو جيشها[٣]

---

(١) أبو الفدا : المصدر السابق جـ٣ ص ١٦٢.

(٢) هو شرف الدين عبد العزيز بن محمد بن عبدالمحسن الأنصارى ، توفى بحماة سنة ٦٦٢هـ ، ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ، جـ١ص ٥٩٨ ترجمة رقم ٢٤٥.

(٣) العينى: عقد الجمان جـ١ ص ٢٤٥-٢٤٧، أبو الفدا: المختصر، جـ٣ ص ٢٠٦.

٣- بين الملك المنصور والسلطان بيبرس:

وإذا كان هذا ماثبت من علاقة بين الملك المنصور صاحب حماه، والسلطان الملك المظفر سيف الدين قطز، وذلك لصغر المدة التى قضاها الأخير فى سلطنة مصر [١]. فقد كان بين صاحب حماة والملك الظاهر بيبرس البندقدارى -أحد أعظم سلاطين المماليك البحرية علاقة قوية امتدت إلى أكثر من سبعة عشر عاما ، فمنذ تولى بيبرس السلطنة فى سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م، وحتى وفاته فى أوائل سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م[٢]، والوصل دائر بين الملكين.

وقد بدأت هذه الصلة بأياد بيضاء، قدمها المنصور صاحب حماة للظاهر بيبرس، عند بدء توليه السلطنة المملوكية بالديار المصرية والشامية، وقد أوجب ذلك من جانب السلطان الظاهر بيبرس أن يتعامل مع صاحب حماة باحترام وإجلال ومودة.

وكان أول ما قام به المنصور صاحب حماة لصالح الظاهر بيبرس، هو امتناعه عن مناصرة الأمير علم الدين سنجر الحلبى، نائب دمشق عند خروجه ضد الملك الظاهر بيبرس.

---

(١) قتل السلطان قطز أثناء عودته من بلاد الشام فى طريقه إلى مصر ، بعد انتصاره فى عين جالوت، واستيلائه على الشام بتدبير من الظاهر بيبرس، المقريزى : السلوك جـ١ ص ٤٣٤ ، ٤٣٥.

(٢) عن ترجمة الظاهر بيبرس انظر ، ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات جـ١ ص ١٥٩ ترجمة رقم ٦٩، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ٣ ص ٤٤٧٠ ترجمة رقم ٧١٧.

وكان الأمير علم الدين سنجر الحلبى قد عين فى نيابة دمشق من قبل السلطان قطز أثناء ترتيبه أحوال بلاد الشام بعد طرد المغول منها[١].

فلما جاء للأمير علم الدين سنجر الحلبى خبر وفاة أستاذه السلطان قطز ، وتسلطن الظاهر بيبرس ، لم يقبل نائب دمشق بما حدث وخرج على الظاهر بيبرس، بعد أن حدثته نفسه أن يأخذ السلطنة لنفسه فى بلاد الشام، فأعلن ماحدثته نفسه جهارا ، وجمع الناس ، وحلفوا له، ولم يتأخر أحد عنه فى ذلك ، حتى تمادى فيما هو فيه، فلقب نفسه بالملك المجاهد ، وخطب له بالمساجد ، كما ضربت السكة باسمه[٢] .

ولما استقرت الأمور له علي هذا النحو بدمشق فى ذى الحجة من سنة ٦٥٨هـ أرسل إلى حكام البلاد الشامية لتأييده ، وكان ممن أرسل إليهم الملك المنصور صاحب حماة ، وطلب تأييده والانضمام إليه . ولكن المنصور أبى ذلك، ورد عليه قائلا : أنا مع من يملك الديار المصرية كائنا من كان[٣].

وهذا الرد الواضح من جانب الملك المنصور لعلم الدين سنجر لاتظن أنه رد بلا وعى أو قناعة، أو تقدير للأمور حق قدرها، ولكنه جاء نتيجة لتجربة طويلة ، عاشها المنصور صاحب حماة وأسلافه من بنى المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب مع بنى أيوب؛ فلم يخرج هو ولا أسلافه

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٩ ص ٤٧٦ .

(٢) العينى : عقد الجمان جـ ١ ص ٢٦٥ ، ٢٦٦.

(٣) ابن الوردى : تتمة المختصر جـ٢ ص ٣٠١ ، العينى : عقد الجمان جـ١ ص ٢٦٦.

عن طوع ملوك بنى أيوب بالديار المصرية ، ولم ينحازوا لملوك بنى أيوب فى البلاد الشامية، الخارجين على السلطة الرئيسية بالديار المصرية. وقد أثبتت التجارب أن من يملك مصر ويستقر بها ، يكون الجانب الأقوى الذى تخضع له سائر الممالك فى البلاد الشامية. وقد وضح ذلك أيضا فى عصر سلاطين المماليك الأولى، أو التركية فما خرج ثائر ماكان من نواب الأقاليم الشامية، ونجح فى مسعاه، ولا استطاع فى يوم من الأيام الوصول إلى كرسى السلطنة بالديار المصرية، أو حتى الاستقرار فى الشام، بينما استطاع كثير من ثوار المماليك بالديار المصرية من تحقيق أهدافهم ، واستقروا على رأس السلطة المملوكية بقلعة الجبل بالقاهرة، بل وامتدت ذراعهم إلى الممالك الشامية.

وهكذا لم يجد الملك المجاهد علم الدين سنجر من يؤيده من النواب والملوك فى بلاد الشام، وسرعان ماتلاشى أمره مع أول رد فعل من جانب الملك الظاهر بيبرس ، ففر إلى بعلبك حيث قبض عليه هناك، وأرسل إلى القاهرة، فاعتقل بالقلعة فى ستة عشر من شهر صفر سنة ٦٥٩هـ[١].

ثم مرة أخرى أثبت فيها الملك المنصور صاحب حماة ولاءه للملك الظاهر بيبرس . وذلك عندما ثار العزيزية والناصرية[٢] بقيادة الأمير شمس الدين أقوش البرلى نائب غزة والساحل بنيابة دمشق ، وكان فيمن ندب إليها لقتال الأمير علم الدين سنجر الحلبى[٣].

---

(١) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٤٤٤ ، ٤٤٥.

(٢) من الواضح أنهما فرقتان تابعتان للناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب ودمشق ووالده العزيز محمد صاحب حلب.

(٣) العينى : عقد الجمان جـ ١ ص ٢٩٢.

وكان سبب خروجهم جميعا مجيئ أمر من بيبرس بالقبض على بعض الأمراء العزيزية والناصرية ، ومنهم الأمير البرلى . فخرج الأمير البرلى عندئذ بمن معه من دمشق إلى المرج، ثم سار منها إلى حمص ، وطلب من صاحبها الملك الأشرف مظفر الدين موسى الانضمام إليه، فرفض صاحب حمص ذلك، فاتجه البرلى إلى حماة، وأرسل إلى صاحبها الملك المنصور، يستميله ويغريه بإعادة ملك بنى أيوب إليه. فقال للمنصور : " إنه لم يبق من البيت الأيوبى غيرك فقم لنسير معك، ونملكك البلاد.

ولو كان المنصور محمد غير حصيف، وقليل النظر لفرح بهذا الإغراء، ووثب إلى حتفه، والحق أنه لم يكن كذلك. فلم يجب الأمير شمس الدين أقوش البرلى إلى طلبه، ولم يعر للأمر إهتماما ، ورده ردا قبيحا [١].

عند ذلك اغتاظ الأمير شمس الدين البرلى غيظا شديدا، فقام لتوه بغارة سريعة على حماة، وحرق فيها بعض زروعها، . ثم سار بمن معه إلى شيزر [٢]، ثم إلى حلب . وقد حدث بينه وبين الظاهر بيبرس إثر ذلك مناوشات ومحاورات، وأخذ وعطاء ، ورضاء وغضب، إلى أن قبض عليه الظاهر بيبرس فى رجب سنة ٦٦١ هـ/١٢٦٢م [٣].

---

(١) العينى : عقد الجمان جـ ١ ص ٢٩٢.

(٢) مدينة قرب المعرة ، بينها وبين حماه يوم، يا قوت : معجم البلدان، باب الشين.

(٣) لا مجال هنا فى شرح هذه الأحداث ، وانظر ، ابن الوردى : تتمة المختصر جـ٢ ص٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٧.

ولقد قدر الملك الظاهر بيبرس مواقف الملك المنصور صاحب حماة المختلفة، من ولاء شديد له ، ومشاركته فى الحروب جنبا إلى جنب مع جيوش الدولة المملوكية [١] ، وتنفيذه لأوامره مهما كانت صعوبتها.

وصورت لنا إحدى زيارات المنصور محمد للظاهر بيبرس ، صورة زاهية الألوان لمدى مالقيه المنصور من تقدير عظيم من بيبرس .. وقد حدث ذلك فى شوال من سنة ٦٥٩هـ عندما حضر الملك المنصور محمد إلى دمشق فى هذا التاريخ ومعه الملك الأشرف موسى صاحب حمص لخدمة السلطان الظاهر بيبرس،وكان بدمشق وقتئذ،فتلقاهما الظاهر بيبرس بشديد المودة والاحترام، وحباهما بإنعاماته الجليلة ، ومنها ثمانين ألف درهم لكل واحد منهما ، وحملين من الثياب ، وخيول . وركب كل منهما والأمراء مشاة فى خدمتهما بشعار السلطنة[٢] . وكتب لهما التقاليد[٣] بممالكهما ، بل وزاد كلا منهما على مابيده، فأعطى المنصور صاحب حماة بلاد الإسماعيلية[٤] ،

---

(١) سيأتى الحديث عن الحروب التى اشترك فيها أصحاب مملكة حماة.

(٢) هى مظاهر السلطنة ؛ من أنواع الملابس والأدوات والترتيبات التى كان يظهر بها السلاطين والملوك فى المواكب، القلقشندى : صبح الأعشى جـ٤ ص ٧ ، ٨، ٤٤ -٤٩ ، سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٤٥١.

(٣) التقاليد ، جمع تقليد ، والتقليد : أعلى المراسيم الموقعة من السلطان فى الولايات الكبرى ، تقى الدين عبد الرحمن المحبى : تثقيف التعريف ص ٢٢٠، سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٤٢٤.

(٤) هى المعروفة بقلاع الدعوة التى سبق أن تحدثنا عنها، ص .

ومنح الملك الأشرف صاحب حمص تل باشر [١]، ثم أذن السلطان لهما بالعودة إلى بلديهما [٢].

ثم صورة أخرى رائعة نرى فيها عمق التقدير المتبادل بين كل من الملك الظاهر بيبرس ، والملك المنصور صاحب حماة ، وكيفية التعامل الرفيع بين الملوك. وتظهر هذه الصورة بروعتها عند قدوم السلطان بيبرس إلى حماة فى إحدى زياراته التفقدية لبلاد الشام ؛ وذلك للإطمئنان على أحوالها ، وأحوال حدودها الشمالية.

فقد هرع بعض أهل حماة إلى السلطان بيبرس بقصص، يشكون فيها الملك المنصور صاحب حماة ، وكان من المنتظر بطبيعة الحال أن يطلب من صاحب البريد قراءة هذه القصص؛ لسؤال المنصور فيما يحتاج منها إلى سؤال، واهمال مالا يحتاج إلى ذلك ، أو حتى على الأقل حبا فى الاستطلاع عن أحوال حماة وخباياها.

لكن الظاهر لم يفعل شيئا من هذا تقديرا للملك المنصور فى شخصه، واحتراما لمكانته العالية . وأمر دواداره [٣] أن يجمع القصص، ولايقرأها، ويضعها فى منديل ، ويحملها إلى الملك المنصور. فحملها إليه ، وأقسم له بأن السلطان لم يطلع عليها.

---

(١) سبق ذكر هذه البلدة فى ص ٢٦.

(٢) العينى : عقد الجمان ، جـ١ ص ٣١٧.

(٣) الدوادار : اسم فارسى مركب من لفظين أحدهما عربى وهو الدواة، والثانى دار فارسى ومعناه ممسك ومعناهما معا صاحب البريد، المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار جـ٢ ص٢٢٢، محمد قنديل البقلى : التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ١٣٩.

فلما عادت القصص إلى المنصور ، توقع البعض أن يعاقب الملك أصحاب هذه القصص. لكنه تعامل مع هذه الشكاوى بحس عال رفيع، يليق بالملوك، فأمر بإحضار نار ، وحرق تلك القصص ، ولم يقف على شيئ منها ، حتى لايتغير خاطره من أحد[1].

ولاشك أن قمة التقدير ، والعلاقة المثالية ، التى ربطت بين الظاهر والمنصور ، وقد تمثلت فى وضوح، فى إبقاء السلطان الظاهر بيبرس المنصور محمد ملكا داخل دولة سلاطين المماليك بعد سنة ٦٦٢هـ - كما ذكرنا سابقا - إذ أن الملك الظاهر بيبرس لم يبق علي ملك أو مملكة منذ أوائل ٦٦٢ هـ فى داخل حدود دولته مصرا وشاما ، إلا على مملكة حماة ، وملكها المنصور محمد الثانى [2].

فقد ألغى السلطان بيبرس - كما ذكرنا سابقا - الملكية فى كل من الكرك وحمص ، وذلك بعد القبض على الملك المغيث صاحب الكرك فى سنة ٦٦١هـ ، وموت الملك الأشرف موسى فى أوائل سنة ٦٦٢هـ. وأرسل إليهما نوابا من قبله فأصبحت كل من الكرك وحمص نيابتين من نيابات بلاد الشام، ودعى للسلطان بيبرس فيهما، إيذانا بزوال ملك بنى أيوب منهما[3].

---

(١) العينى : عقد الجمان جـ٢ ص ٣١٦ ، ٣١٧ ، ابن الوردى تتمة المختصر ، جـ ص ٣٣١.

(٢) انظر عن هذا ماسبق ص ٢٠ ، ٢١.

(٣) العينى : عقد الجمان جـ١ ص ٣١٧، المقريزى: السلوك جـ١ ص ، ٤٦.

وعلى الرغم من هذه التقدير المتبادل بين كل من السلطان الظاهر بيبرس ، والملك المنصور صاحب حماة، إلا أن ذلك لم يمنع الظاهر بيبرس من توجيه اللوم أو العتاب فى بعض الأحيان للملك المنصور محمد ، وذلك إذا كان هناك مايوجب هذا العتاب أو اللوم.

وقد انحصرت أسبابهما فى شيئ واحد، وهو انشغال المنصور عن مصالح المسلمين باللهو، وقد حدث هذا العتاب أولا فى سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦١م . عندما أرسل الملك المنصور صاحب حماة شيخ الشيوخ شرف الدين الأنصارى[(١)] فى سفارة إلى الملك الظاهر بالقاهرة . فأبلغه الظاهر أنه عاتب على صاحب حماة؛ لاشتغاله عن مصالح المسلمين باللهو ، ثم أنكر على شيخ الشيوخ ترك مخدومه على ماهو فيه.

ومع هذا نجد الملك الظاهر يعود ويطيب خاطر شيخ الشيوخ ، بل وفوق ذلك حمله ماطيب به قلب صاحبه الملك المنصور[(٢)].

ويبدو أن الملك المنصور لم ينصلح أمره بهذا العتاب الهادئ جدا، وهذا إذا كان شيخ الشيوخ قد أبلغ الملك المنصور عتاب الظاهر من أصل دون أن يحرج منه . فما كان عندئذ إلا أن يرسل الملك الظاهر فى طلب الطواشى شجاع الدين الحموى[(٣)] فى سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م. إلى القاهر .

---

(١) انظر عن ترجمة شيخ الشيوخ شرف الدين ص ٣١.

(٢) العينى : عقد الجمان جـ ١ ٣٣٣ ، ٣٣٤.

(٣) هو الطواشى شجاع الدين مرشد المظفرى الحموى ، الذى توفى سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م ، ومن الواضح أنه ينتسب إلى المظفر محمود صاحب حماة ووالد المنصور، ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ٢٦٠.

وكان شجاع الدين الطواشى أحد كبار رجالات حماة، ومن ذوى الرأى والنصيحة بها، حتى أن المنصور صاحب حماه، وكذا الظاهر بيبرس لايخالفانه الرأى فيما يراه[1] .

فلما قدم الطواشى شجاع الدين إلى قلعة الجبل بالقاهرة، أنكر عليه الظاهر إنشغال مخدومه صاحب حماة باللهو، دون مراعات لمصالح رعيته فى مملكته، ثم بعد أن أنهى الظاهر عتابه أصدر لشجاع الدين بعض قراراته الخاصة فى بعض مصالح حماة ، وكتب له تقليدا بذلك[2].

والملاحظ أن هذا العتاب أو حتى اللوم،لم يصل فى وقت من الأوقات إلى حد الشدة أو القسوة بل اتسم- كما رأينا سابقا- بالهدوء واللين، وعدم المواجهة، بما لايليق ؛ لما بين الملكين من ود وتقدير.

وفوق كل ماتقدم من ألوان المودة التى ربطت بين كل من الظاهر بيبرس ، والمنصور محمد صاحب حماة؛ فقد كان لزيارات المنصور المتكررة إلى مصر لزيارة السلطان، ومشاهدة مصر وبلدانها الهامة دور كبير فى مد جسور الصداقة بين الظاهر والمنصور.

ومن ذلك ماحدث فى شهر ربيع الآخر من سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م ، فقد استأذن المنصور فى هذا التاريخ من السلطان الظاهر بيبرس للحضور إلى مصر، فلما أجابه السلطان، قدم المنصور فى السابع والعشرين من نفس الشهر، فما كان من السلطان بيبرس عند علمه بوصول المنصور على مشارف

---

(١) العينى : عقد الجمان جـ٢ ص ٨٧ ، ٨٨.

(٢) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٥٠٣.

القاهرة إلا أن خرج لاستقباله فى العباسية ؛ وذلك بعد أن أرسل إليه ، ولمن معه التشاريف السلطانية[١].

واستأذن المنصور بعد وصوله فى القاهرة من الظاهر بيبرس بالسفر إلى الاسكندرية لمشاهدتها ، فإذن له بذلك ، وسفر معه أحد كبار الأمراء لخدمته، وتجهيز مايحتاجه أثناء رحلته. وفوق ذلك أرسل لأهل الاسكندرية يأمرهم بإكرام الملك المنصور، واحترامه ، وفرش الشقق بين يدى فرسه. فوصل المنصور وشاهد معالم الاسكندرية ، ثم عاد إلى القاهرة مكرما محترما بخلاف ماخلع عليه السلطان من هدايا عند قدومه[٢].

ثم صحب الملك المنصور أثناء إقامته بالقاهرة السلطان بيبرس فى رحلة صيد بالعباسة، وعادا معا إلى القاهرة بعد فراغهما من الصيد.

وبعد أن قضى الملك المنصور صاحب حماة زهاء شهرين بالديار المصرية، سافر صحبة السلطان إلى بلاد الشام، ثم عاد إلى بلاده[٣].

كذلك كانت من أعظم الزيارات التى لاقى فيها المنصور صاحب حماة تقديرا كبيرا من جانب الملك الظاهر بيبرس ، كانت زيارته للقاهرة فى سنة ٦٧٣هـ/١٢٧٤م ، ومعه أخوه الأفضل وابنه المظفر محمود.

---

(١) التشاريف ، بمفردها التشريف : وهى الخلعة، أو الملابس المهداة من السلطان لمن دونه أو مثله، ل. أ . ماير : الملابس المملوكية ص ١٠١-١١٤ ، سعيد عاشور: العصر المماليكى ص ٤٢٣.

(٢) العينى : عقد الجمان جـ٢ ص ٧.

(٣) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٥٥٦ ، ٥٥٨ ، العينى : عقد الجمان جـ١ ، ص٧.

وأهم مافى هذه الزيارة، أن الظاهر بيبرس قد أنزل ضيفه العزيز ومن معه فى مناظر الكبش[(١)] ، ولم يكن ينزل فيها حتى هذا التاريخ سوى الملوك، وبعض خلفاء بنى العباس فى مصر. وأصبحت مناظر الكبش منذئذ منزلا خاصا ينزل فيه ملوك بنى أيوب بحماة عند زياراتهم للقاهرة.

وفوق هذا التكريم الكبير أرسل الظاهر إستاداره[(٢)] الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقانى [(٣)]، المسئول عن الطعام والشراب وغيرهما فى بيوت السلطان[(٤)] .

فلما وصل أقسنقر مد موائد الطعام بين يدى المنصور ورفاقه ، ثم وقف كما يفعل بين يدى السلطان عند تناوله للطعام.

---

(١) كان الكبش قصرا رائعا في مكان أكثر روعة، تأنق فى بنائه الملك الصالح نجم الدين أيوب على جبل يشكر ، بجوار الجامع الطولونى . وكان الكبش بحكم انفراده فى هذا المكان المرتفع يشرف على بساتين ومناظر جميلة ؛ ولذا كانت من أجل متنزهات مصر فعرف الكبش وماحوله بمناظر الكبش، المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ١٣٣ ، ١٣٤.

(٢) الأستادار : هو المشرف على البيوت السلطانية من وارد ومنصرف ، وموظفين بجميع أنواعهم ورتبهم، المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٢٢٢، عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم ، جـ٢ ص ١٧-٣٣.

(٣) هو آقسنقر بن عبد الله النجمى الفارقانى ، المتوفى سنة ٦٧٧هـ/١٢٢٧٨م، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، جـ٢ ص ٤٩٤ ترجمة رقم ٥٠٠.

(٤) القلقشندى : ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر ، جـ١ ص ٢٤٧.

لكن المنصور ولتواضعه الجم رفض أن يعامله الاستادار كما يتعامل مع الظاهر ، ورفض قيامه بين يديه، ومازال به حتى أجلسه[١].

وإذا كنا قد تحدثنا كثيرا عن مدى ماقدمه الملك الظاهر سيف الدين بيبرس للملك المنصور صاحب حماه، من إنعامات ، وخلع وتشاريف بخلاف ماكان منه من تقدير وتعظيم لشخص الملك المنصور ، فإن الأخير أيضا لم تنقطع هداياه ، ولاخدماته ، ولازياراته ، ولا مشاركاته في الحروب [٢] ، وغيرها عن السلطان الظاهر بيبرس، ولا عن غيره من السلاطين السابقين له ، أو اللاحقين به[٣].

ومن هذا وذاك نرى أن الظاهر بيبرس والملك المنصور صاحب حماه ، قد ربطت بينهما كثير من الصفات المشتركة، والتعاون المثمر، عدا ماكان بينهما من صداقة عامرة ، ومودة غامرة، دامت وتأصلت حتى وفاة السلطان الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٧٦هـ /١٢٧٧م[٤].

وقبل أن نغلق الباب على ماكان بين الظاهر والمنصور صاحب حماة ، من مودة ، وصداقة، ومصالح مشتركة ، نتعرض لقصة طريفة ربطت بينهما أيضا ،فقد قيل:أن تاجرا من تجار المماليك أحضر بيبرس ومملوكا آخر إلى مملكة حماة لبيعهما ،فاستحضرهما الملك المنصورمحمد صاحب حماة ليشتريهما

---

(١) المقريزي: السلوك ، جـ١ ص ٦١٤، الخطط ، جـ٢ص ١٣٣ ، ١٣٤.

(٢) سوف نتحدث إن شاء الله عن مشاركة هذه الأسرة مع المماليك في حينه .

(٣) النويري : نهاية الأرب جـ٢٩ ص ٤٠٩.

(٤) انظر ما سبق عن ترجمته ص ٣٢ح٢.

لكن لم يعجبه أحد منهما، فرغب عنهما . فعرضهما التاجر عندئذ على الأمير أيدكين البندقدار[1] الصالحى ، أحد مماليك الصالح نجم الدين أيوب سلطان الديار المصرية، فاشترى أيدكين البندقدار المملوك بيبرس ؛ وذلك أيام أن كان معتقلا بحماة بأمر الصالح أيوب[2] ، ومن هنا انتسب الملك الظاهر بيبرس إلى أيدكين البندقدار ، فقيل له بيبرس البندقدارى[3].

والقصة على الرغم من طرافتها وظرفها ، إلا أنها فى نفس الوقت تدمى العين وتبكى القلب ، من انقلاب الأحوال رأسا على عقب، وسخرية الأقدار على بنى أيوب ، الذين عاشوا عصرا زاهيا من عصور التاريخ الاسلامى. فها هو مملوك الأمس الذى رغب عن شرائه أحد ملوك بنى أيوب، يصبح سلطانا فى الديار المصريةوالشامية وغيرهما، وسيدا على الملوك والعامة ، ورأسا فوق الخاصة والسوقة.

وهكذا أضاع بنو أيوب ملكهم الكبير، وصيتهم العريض اللذين منحهما لهم زعيم بنى أيوب الخالد الذكر السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى بعد جهاد متواصل ، وكفاح مرير ، فباعوهما بالأطماع والخلافات.

---

(١) البندقدار : مكونة من كلمتين بندق وهى كرات تصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص يستخدمها الرماة فى تطبير الحمام، ودار : ممسك فيكون معنى البندقدار : حامل كيس البندق خلف السلطان أو الأمير، القلقشندى: صبح الأعشى ج٥ص ١٥٣، سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٤٢٠.

(٢) العينى : عقد الجمان ، جـ٢ ص ١٧٥.

(٣) انظر عن ذلك فى ترجمته ابن تعرى بردى : المنهل الصافى ص ٤٤٧ ترجمة رقم ٧١٧.

والأحقاد والذاتية، وترك الجهاد، وسفك دماء بعضهم؛ حتى أفسحوا المجال، وفتحوا الأبواب على مصرعيه للجوارى والمماليك ؛ ليكونوا سيدات وسادة .

ولم يبق من صولجان بنى أيوب وشموخهم غير الملك المنصور محمد، وذلك عبرة لمن يعتبر ، وعلامة خافتة فى طريق كانوا هم أصحابه وفرسانه.

وينطبق ماذكرناه مع قول الله سبحانه وتعالى : " قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيئ قدير[1].

٤- بين المنصور والسلطان قلاوون:

بعد موت الملك الظاهر بيبرس تسلطن ابنه الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة قان؛ وذلك فى السادس والعشرين من شهر سفر سنة ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م، وقبل مضى سنتين وحوالى شهرين خلع السلطان محمد بركة من سلطنة دولة سلاطين المماليك ، وأجلس كبار الأمراء أخاه العادل بدر الدين سلامش فى دست السلطنة ، فى السابع من ربيع الآخر سنة ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م ولم يكن قد تجاوز السابعة وأشهرا من عمره[2].

ولم يستمر الأخير بطبيعة الحال فى السلطنة طويلا، إذ خلعه كبير الأمراء سيف الدين قلاوون الصالحى، وجلس فى تخت السلطنة بدله فى العشرين من رجب من نفس السنة، وقبل مرور ثلاثة أشهر من سلطنته[3].

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٢٦.

(٢) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٦٤١ -٦٥٦.

(٣) الذهبى : العبر جـ٣ ص ٣٣٧، عمر عبد السلام تدمرى: تاريخ طرابلس السياسى والحضارى عبر العضور جـ١ ص ٤١٠..

ولم تكن للمنصورصاحب حماة علاقة بأولاد الظاهر بيبرس كالتى كانت مع والدهم بخلاف أن هذه الفترة القصيرة من عمر سلطنة كل من بركة وسلامش لم تسمح لذلك ، ولم يكن للمنصور صاحب حماة أثناء هذه الفترة القصيرة، سوى شن بعض الغارات على بلاد سيس[1] بأمر من السلطان بركة، صحبة الأمير سيف الدين قلاوون الصالحى، قبل أن يلى السلطنة المملوكية[2].

ولم يكد يلى السلطان الملك المنصور قلاوون السلطنة المملوكية، حتى بدأت علاقة فريدة فى نوعها ، بين كل من المنصور صاحب حماة ، والمنصور قلاوون.

وقد بدأت العلاقة بين الطرفين بمبادرة من الملك المنصور صاحب حماة. ففى الخامس والعشرين من شوال سنة ٦٧٨هـ وقبل أن يمضى شهران وأيام من تولى السلطان ملك مصر حضر المنصور محمد إلى الديار المصرية فى زيارة خاصة للسلطان قلاوون.

فلما علم السلطان بقدوم المنصور صاحب حماة ، حتى خرج المنصور قلاوون للقائه خارج القاهرة تعظيما لشأنه، ثم أنزله بمناظر الكبش - كالعادة- واهتم به اهتماما زائدا.

---

(١) سيس ، ويقال لها سيسية : هى من أكبر حصون بلاد الأرمن وقاعدة ملكهم التى تقع فى جنوب شرقى آسيا الصغرى، العمرى : مسالك الأبصار جـ٢ ق٣ ورقة ٤٠٤ ، أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٥٦، ٢٥٧ ، لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٧٣.

(٢) ابن الوردي : تتمة المختصر جـ٢ ص ٣٢٣.

وبما أن هذه الزيارة كانت أول زيارة يتم فيها لقاء السلطان قلاوون ، بالمنصور محمد صاحب حماه، بادر السلطان قلاوون بكتابة تقليد للمنصور باستقراره فى حماة. وحتى يعن المنصور فى تقديره لصاحب حماه، سير مع التقليد السناجق السلطانية بخلاف أربعة صناديق ذهبا وفضة وأربعة صناديق ثياب من صناعة الاسكندرية، والعتابى [١] ، وعدد من الخيول . كما خلع عليه وعلى من معه. ثم لما أذن المنصور قلاوون للملك المنصور بالعودة لبلده ، خرج فى صحبته لوداعه [٢].

وكادت أن تشوب هذه العلاقة الوليدة بين المنصورين المنصور محمد صاحب حماة والمنصور قلاوون ، شائبة تؤدى بها فى مهدها. وذلك قبل مرور شهرين من زيارة صاحب حماة لمصر .

فقد حدث أن الملك المنصور أرسل جيشا بقيادة أخيه الملك الأفضل، لنجدة نائب الشام الأمير شمس الدين سنقر الأشقر [٣] ، حينما خرج الأخير على السلطان قلاوون، ونادى بالسلطنة لنفسه فى أوائل شهر محرم بن سنة ٦٧٩هـ ١٢٨٠م ، ولقب نفسه بالملك الكامل. وقد كسر سنقر فى بداية الأمر، ثم عاد وجمع خلقا عظيما، وجاءته النجدات من كل مكان ـــــ

---

(١) العتابى : صنف القماش الخشن ، مخطط بحمرة وصفره ، وهو لباس تحتانى لطبقة الوزراء ومن دونهم ، ماير : الملابس المملوكية ص ١٠٧.

(٢) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٦٦٨ ، ٦٦٩.

(٣) عن ترجمته انظر ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ٦ ص ٨٧ - ٩٥ .

بعض أمراء العرب ومن حلب وحماه ، وتحرك الأمير سنقر بجيوشه المتعددة للقاء جيش قلاوون القادم من مصر لقتاله.

وقد يظن البعض أن الملك المنصور محمد، بإرساله نجدة للأمير شمس الدين سنقر الأشقر، قد خرج عن مبدئه الذى سار عليه فى تخطيط سياسة مملكة حماة ، حيال دولة سلاطين المماليك حيث كان المبدأ الثابت ، هو عدم مناصرة أمراء الشام الخارجين على السلطة الشرعية فى مصر ، وأوضح ذلك صاحب حماة بلا مواربة للأمير علم الدين سنجر نائب الشام ، حينما خرج على سلطانه الملك الظاهر بيبرس ، وطلب منه المعاونة إذ قال له :" أنا مع من يملك الديار المصرية كائنا ماكان"(١).

ولكن الذى حدث بعد ذلك يوضح أن الملك المنصور ما حاد عن مبدئه الذى استنه لنفسه ، إذ أن الملك الأفضل قائد جيش حماة وحلب أيضا، قد تسلل بجيشه فى لحظة التحام الجيوش الشامية بالجيش المصرى فى مطلع فجر اليوم السادس عشر من شهر صفر سنة ٦٧٩هـ / ١٢٨٠م.

وعلى الرغم من استمرار المعركة بين الجيشين الشامى والمصرى بعد انسحاب الحمويين والحلبيين حتى الساعة الرابعة عصرا إلا أن إنسحاب الجيشين كان إيذانا بانسحاب أكثر جيش الأمير سنقر ، ومخامرتهم له وانضمامهم لجيش السلطان المنصور قلاوون ، مما أدى فى نهاية الأمر إلى هزيمته، ثم فراره من ميدان المعركة(٢).

---

(١) انظر ماسبق ص ٣٣.

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٢٩٥ ، ٢٩٦.

وكأن ماحدث من الجيش الحموى والحلبى من انسحاب كان مخططا مسبقا لاضعاف معنويات جيش الأمير سنقر الأشقر وتخذيله. وهذا ماتحقق بالفعل كما رأينا .

ومن الواضح أن ماحدث آخرا من الجيش الحموى لم يترك شائبة قد تجول فى خاطر السلطان قلاوون من الملك المنصور؛ بدليل أن العلاقات الطيبة لم تستمر بينهما فقط بل زادت وترعرعت ، وبلغت شأوا بعيدا. وعادت زيارات المنصور المتكررة لمصر؛ لتعمق مابين الطرفين من مودة ومحبة.

ولعل أبلغ دليل لهذا تلك الزيارة التى قام بها الملك المنصور صاحب حماه، فى أوائل سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م . فقد أركبه السلطان قلاوون عند وصوله فى موكب حافل بالسناجق السلطانية، والجفتا [١] ، كما يحدث فى المواكب السلطانية، مما يدل على غاية التكريم التى لم يجد مثلها المنصور قبل هذا التاريخ.

---

(١) الجفتا : من رسوم الملك، وهى عبارة عن اثنين من أو شاقبة اصطبل السلطان قريبان فى السن، ويركبان أمام السلطان فى بعض المواكب السلطانية بزى مخصوص وعلي فرسين أشهبين ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ٤ ص ٧ ،٨. سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٤٢٧.

(٢) الغاشية : من رسوم الملك أيضا ، وهى عبارة عن سرج من آديم مخروزة بالذهب يخالها الناظر جميعها بالذهب ، وتحمل بين يدى السلطان عند الركوب فى المواكب، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٧.

وكان رد الفعل لهذا التكريم الزائد، رائعا أيضا من قبل المنصور صاحب حماة . فعندما سأله السلطان عن حاجته، سارع بطلب إعفائه من لقبه المنصور ، معللا بأن اللقب لم يعد يليق بمثله، وذلك بعد أن تلقب السلطان قلاوون به.

وهنا أبدى المنصور قلاوون مايكنه من حب للمنصور محمد صاحب حماة، فأجابه قائلا : بأنى ماتلقبت بهذا اللقب إلا لمحبتى فيك ، ولو كان لقبك غير ذلك تلقبت به ، فشيئ قد فعلته محبة لاسمك كيف أمكن من تغييره[1].

وإذا كان المنصور صاحب حماة قد تملك قلب السلطان قلاوون، فإن ابنه الملك الصالح علي بن قلاوون[2] ، قد أحب المنصور أيضا، وزاد فى احترامه وتكريمه، وينوه على هذه مافعله الملك الصالح على عندما خرج في رحلة صيد إلى العباسة سنة ٦٨٢هـ واستطاع اسقاط بجعة بالبندق، وفرح لذلك أيما فرح ، وإختار الملك المنصور صاحب حماة لاهدائه ما أسقطه بالبندق تيمنا به.

وقد سعد صاحب حماة كثيرا أن يكون هو المختار لهدية الملك الصالح على ، فبادر بدوره بإرسال هداياه الجليلة للملك الصالح على بن قلاوون[3].

---

(١) ابن الوردى : تتمة المختصر جـ٢ ص ٣٢٩.

(٢) كان الملك الصالح علاء الدين على ولى عهد ملك والده المنصور قلاوون، ولكنه مات قبل والده سنة فى سنة ٦٨٧هـ ، ابن حبيب : تذكرة النبيه جـ١ ص ١١٥.

(٣) ابن الوردى : تتمة المختصر جـ٢ ص ٣٢٩.

واستمرت العلاقات بين المنصور قلاوون وبين المنصور ناصر الدين محمد الأيوبى صاحب حماه، على هذا المستوى الراقى من التعامل والتعاون المتبادل ، فى حب وإخاء صادق ، ولم ينقطع تردد المنصور محمد عن زيارة السلطان ، سواء كان فى مصر ، أو فى الشام ، كما لم تنقطع هداياه، ولا مشاركاته فى الحروب بعسكر حماة إلى آخر أيام حياته[١].

وكانت آخر زياراته التى قام بها للمنصور قلاوون فى دمشق سنة ٦٨٣هـ، إذ أن السلطان كان بزيارتها بين شهرى جمادى الآخرة وشعبان[٢] .

ولم يمكث المنصور محمد صاحب حماة بعد هذه الزيارة كثيرا، إذ أنه مرض بالحمى الصفراء فى أوائل شعبان بعد عودته من خدمة السلطان، وزاد عليه المرض فى شوال حتى أشرف على الموت. فكتب عندئذ آخر رسائله للسلطان قلاوون ، يسأله فيها إقرار ابنه المظفر محمود فى مملكته[٣].

وسارع المنصور قلاوون بالرد على رسالة صاحب حماة برسالة أجابه فيها بمراده ، بعد أن بث فيها أحزانه عليه، ودعواته له ، وجاء فيها بعد البسملة :

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ، جـ٢٩ ص ٤٠٩.

(٢) ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ٢ ص ٣٣٠ ، النويرى : نهاية أرب ، جـ٣١ ص ١١٩ ، ١٢٠.

(٣) العينى : عقد الجمان ، جـ٢ ص ٣١٥.

* المملوك قلاوون

أعز الله أنصار المقام [(١)] العالى المولوى السلطانى الملكى المنصورى الناصرى ، ولاعدمه الإسلام ، ولافقدته السيوف والأقلام .. ومنه : وأما الإشارة الكريمة إلى ماذكره من حقوق يوجبها الإقرار ، وعهود آمنت بدورها من السرار . ونحن بحمد الله فعندنا تلك العهود ملحوظة ، وتلك المودات محفوظة . فالمولى يعيش قرير العين فما ثم إلا مايسره من إقامة ولده مقامه، ولايحول ، ولايزول ، ولايرى على ذلك ذلة ولاذهول، ويكون طيب النفس ، مستديم بصدق العهد القديم، وبكل مايؤثر من خير مقيم"[(٢)].

ولكن الملك المنصور ناصر الدين محمد الأيوبى مات قبل أن تصله هذه الرسالة بستة أيام. وكان أكبر أمانيه أن يعيش إلى أن يسمع جواب السلطان فى أمر تولى ابنه المظفر محمود ملك مملكة حماة من بعده[(٣)].

وهكذا مات الملك المنصور صاحب حماة بعد حياة حافلة، وبعد إحدى وأربعين سنة من ملكه مملكة حماة، وذلك فى الحادى عشر من شوال سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م[(٤)].

---

(١) المقام فى اللغة : اسم لموضع القيام، ويكنى به عن صاحب اللقب تعظيما له عن النطق باسم صاحبه ، وهو لقب خاص بالملوك والسلاطين، القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٧ ص ١٩، ٢٠ ، عبد الرحمن أمين : من قواعد تحديد الرتب فى المكاتبات السلطانية زمن سلاطين المماليك ، ص٣٣٨.

(٢) ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ٢ ص ٣٣٠ ، ٣٣١.

(٣) العينى : عقد الجمان ، جـ٢ ص ٣١٤ ، ٣١٥.

(٤) ابن حبيب : تذكرة النبيه ، جـ١ ص ٨٨ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، جـ٥ ص ٣٨٤.

الفصل الثانى

بين المظفر محمود وسلاطين المماليك

يعتبر الملك المظفر الثالث تقى الدين محمود بن محمد صاحب حماة هو أول من عين رسميا ملكا على حماة من قبل سلاطين المماليك ذلك لأن والده الملك المنصور محمد، وإن كتبت له تقاليد من سلاطين المماليك بملك حماة، غير أن هذه التقاليد كانت تأتى باستمراره ، أو استقراره فى المملكة التى ورثها عن آبائه وأجداده قبل قيام دولة سلاطين المماليك.

ولقد عاصر الملك المظفر الثالث محمود صاحب حماة ، أثناء ملكه الذى امتد أكثر من خمسة عشر عاما، من عشرين شوال سنة ٦٨٣هـ إلى أثنى عشر شهر ذى القعدة من سنة ٦٩٨ هـ خمسة سلاطين ، وذلك بخلاف أن الناصر محمد بن قلاوون تولى السلطنة مرتين فى هذه المدة، فكان أولهم السلطان المنصور قلاوون، وآخرهم ابنه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى فترة حكمه الثانيه، مروراً بالسلاطين الأشرف خليل بن قلاوون، فالناصر محمد بن قلاوون فى الفترة الأولى من سلطنته، فزين الدين كتبغا، ثم حسام الدين لاجين[1].

ومن الواضح أن الملك المظفر قد تعلم فى إتقان فن السياسة من والده الملك المنصور محمد، الذى عاش فى ظل أعظم سلاطين المماليك، من أمثال: الملك الظاهر بيبرس، والسلطان قلاوون، واستطاع على الرغم من ذلك أن يمتلك صداقتهم ، وحبهم ، وتعظيمهم له حتى آخر لحظة من عمره . فنرى الملك المظفر أيضا مع كثرة من تعامل معهم من السلاطين فى مدة ملكه القصيرة بالنسبة لوالده، وبالاضافة إلى كثرة الفتن، واضطراب أحوال الدولة

---

(١) زامباور : معجم الأسرات الحاكمة جـ١ ص ١٥٣، أحمد السعيد : تاريخ الدول الاسلامية جـ١ ص ١٦٢.

المملوكية فى بعض فترات عصره، حتى قتل فيها عدد من هؤلاء السلاطين أو تم عزلهم؛ فإنه استطاع أن يكسب ود الجميع وصداقتهم، وتعامل معهم بفن واقتدار، حتى عبر بمملكة حماة - كوالده - بر الأمان وسط هذه الفتن والقلاقل.

وسنتبين ماقلناه من خلال رصد علاقة الملك المظفر بسلاطين المماليك فى عصره.

بين المظفر والسلطان قلاوون :

قلنا سابقا أن الملك المنصور محمد صاحب حماه، أرسل أثناء مرض موته، يسأل السلطان قلاوون فى إقرار ابنه المظفر فى مملكته. وجاء الرد وفق ماتمناه ، ولكن كان ذلك بعد وفاته[1].

فلما جاء الخبر بوفاة الملك المنصور صاحب حماة ، سارع السلطان قلاوون بإرسال تقليد للملك المظفر محمود؛ إيفاء لوعده السابق لوالده، وذلك فى العشرين من شوال سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤، باستقراره فى مملكة أبيه، وذلك وفق القواعد والأصول المرعية أيام الملك المنصور محمد[2].

وجاء فى التقليد الذى أرسله السلطان قلاوون إلى الملك المظفر محمود، مع الأمير جمال الدين أقوش الحاجب[3]، مايلى:

---

(١) العينى : عقد الجمان ، جـ٢ ص ٣١٥.

(٢) ابن حبيب : درة الاسلاك ، ص ٢٧٧ ، العينى : عقد الجمان، جـ٢ ص ٣١٦.

(٣) ورد اسمه فى تاريخ ابن الفرات وفى السلوك آقش ويبدو أن اللفظين ينطق بهما لواحد، وقتل المذكور سنة ٦٩٣هـ ، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات جـ٨ ص ١٨٧ ، ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ٢ ص ٣٣١ ، ٣٤١ ، المقريزى : السلوك ، جـ١ ص ٧٢٥ ، ٧٩٥.

" أعز الله نصرة[1] المقام العالى المولوى السلطانى الملكى المظفرى المنصورى التقوى ، ونزع عنه لباس البأس ، وألبسه حلل السعد المجلوة على أعين الناس، وهو يخدم خدمة بولاء أثمرت غصونه، وزهت أفنانه وفنونه".
ومنه : " وقد سيرنا المجلس السامى جمال الدين أقوش الموصلى الحاجب. أصحبناه من الملبوس الشريف ما يغير به لباس الحزن، ويتجلى فى مطلعه ضياء وجهه الحسن، وتنجلى غيوم تلك الغموم. وأرسلنا أيضا صحبته مايلبسه هو وذووه ، كما يبدو البدر بين النجوم".

وفى آخر التقليد:" كتب فى عشرى شوال سنة ثلاث وثمانين وستمائة"[2].

ثم كان أول لقاء تم بين السلطان المنصور قلاوون ، والملك المظفر محمود صاحب حماة ، بعد استقراره بمملكة حماة فى شهر صفر من سنة ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م بدمشق وكان المنصور قلاوون قد حضر إلى دمشق فـــى

---

(١) فى افتتاحية الكتاب هنا للمظفر " أعز الله نصرة المقام العالى ، بينما كان فى آخر رسالة من المنصور قلاوون للمنصور صاحب حماة : " أعز الله أنصار المقام العالى، ويتضح من ذلك أن رتبة المكاتبة للمنصور أعلى من المظفر، القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٧ ص ٣٩ -١٤١.

(٢) ورد هذه المكاتبة بالزيادة أو النقص فى المصادر ، انظر : ابن حبيب : تذكرة النبيه، جـ١ ص ٨٩ ، ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ٢ ص ٣٣١ ، العينى : عقد الجمان جـ٢ ص ٣١٧ ، ٣١٨.

أواخر المحرم منها، ليستعد بها لمنازلة الاسبتار[١] بحصن المرقب[٢] . وكان هذا الحصن بداية الانطلاق للسلطان قلاوون وابنه الأشرف خليل للقضاء على بقايا الصليبيين فى بلاد الشام[٣].

وفى أثناء اقامة المنصور قلاوون فى دمشق، حضر الملك المظفر محمود بعسكره ، ومعه عمه الأفضل لزيارته ، وتقديم خدماتهما. فاستقبلهما السلطان قلاوون استقبالا عظيما لا حد له ، وأكرمهما غاية التكريم.

ثم فى اليوم الثالث من وصول الملك المظفر صاحب حماة، أراد المنصور قلاوون أن يجدد عهده للمظفر زيادة فى تكريمه، فأرسل إليه تقليدا جديدا، بسلطنة حماة، والمعرة ، وبارين، كما أرسل اليه التشريف، وشعار السلطنة، الذى احتوى على : سنجق ، وفرس بسرج ذهب ، ورقبة[٤]، وكنبوش[٥] وكذلك الغاشية السلطانية.

---

(١) طائفة عسكرية دينية صليبية متعصبة ، آرنست باركر : الحروب الصليبية، ص ١٧٤ ، الباز العرينى : الشرق الأوسط والحروب الصليبية جـ١ ص ٣٥٧ ،٣٥٩.

(٢) قلعة حصينة تشرف على سواحل الشام وعلي مدينة بانياس ، أبو الفدا : تقويم البلدان ، ص ٢٥٤.

(٣) العينى : عقد الجمان ، جـ٢ ص ٣٣٨ ؛ جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون فى مصر ص ٢٣٧ ، عمر عبد السلام تدمرى : تاريخ طرابلس السياسى والحضارى عبر العصور جـ١ ص ٤١٨، ٤٢٧.

(٤) الرقبة : عبارة عن رقبة تجعل فى رقبة الفرس، مصنوعة من أطلس أصفر مزركش بالذهب ، سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٧٠.

(٥) الكنبوش : البرذعة توضع تحت سرج الفرس ، سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٤٦٦ ، ماير : الملابس المملوكية ص ١٣٥.

فركب المظفر صاحب حماة عندئذ بشعار السلطنة والغاشية ، وسار معه الأمراء ، ومقدموا العسكر من داره -المعروفة- بالحافظة ، داخل باب الفراديس[١] إلى أن وصل قلعة دمشق. ومشت الأمراء فى خدمته حتى وصل إلى قصر السلطان على هذا النحو. فلما دخل المظفر على السلطان زاد الأخير فى تكريمه، حتى أجلس المظفر بجواره على الطراحة[٢] الخاصة به. ثم ختم كل هذا التكريم العملى ، قائلا قولا بلغت غاية فى الحب والمودة والاعتزاز، قال السلطان قلاوون للمظفر: "أنت ولدى ، وأعز من الملك الصالح[٣]، فتوجه إلى بلادك وتأهب لهذه الغزاة المباركة، فأنتم من بيت مبارك ، ماحضرتم فى مكان إلا وكان النصر معكم"[٤].

وعاد الملك المظفر صاحب حماة ، ليستعد بجيشه لمشاركة السلطان المنصور قلاوون فى مشروعاته الحربية ضد بقايا الصليبيين، وقد خاض المظفر عددا من هذه المعارك الحاسمة بنجاح جنبا إلى جنب مع جيش السلطان قلاوون. وقد شاركه فى هذه الحروب عمه الأفضل على ، وابن عمه أبو الفدا عماد الدين إسماعيل بن الأفضل، الذى أصبح ملكا على حماة فى

---

(١) يعرف أيضا بباب العمرة ، أحد الأبواب الأربعة لجامع دمشق.

(٢) الطراحة : مرتبة خاصة لجلوس السلطان سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٤٥٤.

(٣) يعنى به : ابنه الملك الصالح علاء الدين على بن قلاوون.

(٤) ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ٢ ص ٣٣٢.

عصر الناصر محمد بن قلاوون، وكان عمره فى ذلك الوقت اثنتى عشرة سنة[١].

بين المظفر والأشرف خليل:

فى السادس من ذى القعدة سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م ، توفى السلطان الملك المنصور قلاوون ، وتولى سلطنة دولة المماليك فى مصر من بعده ، ابنه السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل[٢] .

ولم يستمر الملك الأشرف خليل كثيرا فى ملك مصر؛ إذ أنه قتل فى الثانى عشر من محرم سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م ، أى أنه استمر فى السلطنة ثلاث سنوات، وحوالى ثلاثة أشهر . وقد قضى الرجل سنوات حكمه القليلة فى جهاد مستمر.، مرة مع بقايا الصليبيين فى سواحل الشام ، حتى أنه لم يبق للصليبيين بها معقلا ولاحصنا، ولله الحمد[٣] ، ومرة مع النصـــــارى

---

(١) العينى : عقد الجمان ، جـ٢ ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ٢ ، عمر عبد السلام : تاريخ طرابلس ، جـ١ ص ٤١٩.

(٢) عن ترجمته انظر ، ابن حبيب : تذكرة النبيه ، جـ١ ص ١٣٥ ، ١٣٦ ، ابن تغرى ص٣٣٢ ، ٣٣٥ بردى : المنهل الصافى ، جـ٥ ص ٢٧٠ - ٢٨٠ ، ترجمة رقم ١٠٠٩.

(٣) الذهبى : العبر، جـ٣ ص ٣٧١ ، ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ١ ق ١ص ٣٧٧.

القاطنين بقلعة الروم [١] . وأتم الاستيلاء عليها ، وكانت تحت طاعة الأرمن [٢].

ثم أخيرا مع بلاد الأرمن التى سارع ملكهم بتسليم بعض القلاع خوفا من ملاقات الأشرف خليل [٣].

ومن هنا فلم يكن هناك فى غالب الأمر لقاءات، بين الملك المظفر صاحب حماة، والسلطان الملك الأشرف خليل إلا فى ميادين الحرب والجهاد. وقد كان للمظفر وجيش حماة دور كبير ، فى الجهاد الذى قاده السلطان الأشرف خليل [٤].

وعلى الرغم من هذا إلا أن كلا الملكين، قد انتهزا الفرصة المواتية، فى خضم هذه المشغوليات الجسام : ليعبرا عما بينهما من مودة وإخلاص فى أوقات السلم القليلة.

---

(١) سميت هذه القلعة بعد فتحها بقلعة المسلمين ، وتقع فى البر الغربى الجنوبى من الفرات أمام قلعة البيرة ، أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٦٨، ٢٦٩.

(٢) النويرى : نهاية الأرب ، جـ٣١ ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ابن حبيب : تذكرة النبيه جـ١ ص ١٤٩، وذهب الذهبى إلى أن قلعة الروم كانت تحت طاعة التتار، الذهبى : العبر جـ٣ ص ٣٧٥.

(٣) المقريزى : السلوك ، جـ١ ص ٧٨٤ ، ابن إياس: بدائع الزهور ، جـ١ ، ق١ ص٣٧١.

(٤) ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ٢ ص ٣٣٦-٣٤٠.

ففى شهر محرم من سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م أى بعد حوالى شهرين من سلطنة الأشرف خليل ، قدم الملك المظفر صاحب حماة إلى مصر ، لتهنئة السلطان خليل لتوليه السلطنة خلفا لأبيه، فأكرمه الأشرف غاية التكريم ، وحمل إليه ماجرت به العادة ، ثم كتب له تقليدا فى حكم بلاده[١].

وفى سنة ٦٩١هـ/ ١٢٠١م ذهب المظفر صاحب حماة لزيارة السلطان خليل بن قلاوون فى دمشق ، عندما حضر إليها الأخير ، استعدادا للتحرك إلى قلعة الروم لفتحها، ولما عرف المظفر أثناء وجوده بدمشق من احتمال مرور السلطان بجيشه قريبا من أراضى مملكته، سأل كبار الأمراء- منتهزا هذه الفرصة العظيمة - برغبته فى تكريم السلطان، ومن معه، وضيافتهم فى مملكته . فأجابه السلطان خليل حبا فى تحقيق رغبة المظفر ، بعد أن تحدث إليه في ذلك الأمر كبار أمراء الأشرف.

فسبق المظفر -عندئذ- ومعه عمه الملك الأفضل على السلطان ومن معه، للاستعداد لهذا الحدث الكبير. فلما وصل السلطان بجموعه فى الأراضى الحموية. ضرب المظفر وعمه الأفضل خيمة كبيرة تليق بالسلطان ، عند ساقية سلمية[٢] القريبة من حماة ، ثم مدا له سماطا[٣] عظيما بالميدان.

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ١ ص ٧٦٢.

(٢) بليدة من ناحية البرية من أعمال حماة بينهما مسيرة يومين ، ياقوت : معجم البلدان ، باب السين.

(٣) السماط : المائدة ، ومايبسط على الأرض لوضع الأطعمة وجلوس الآكلين ، سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٤٤٨.

فنزل الأشرف خليل بالميدان، فبسط له الملك المظفر بين يدى فرسه عددا كبيرا من الشقق الفاخرة ، ثم دخل السلطان الخيمة، ومعه كبار الأمراء والجند ، وجلس على رأس السماط . فظل الملك المظفر واقفا لخدمة الأشرف أثناء تناوله للطعام، وحلف أنه لايجلس حتى يفرغ السلطان من طعامه . وصنع أحواضا للمشروبات المختلفة من ليمون ، وسكر، وغيرهما.

وقيل أن المظفر ذبح فى ذلك اليوم ألف ألف رأس من الغنم[١] ، ومائة فرس ، وثمانين بقرة، وعمل ألف صحن من الحلوى[٢].

ثم دخل الأشرف خليل بعد ذلك فى دار الملك المظفر بمدينة حماة فبسط المظفر بين يدى فرس السلطان مرة ثانية حتى دخل داره، وتجول بها ، ثم تجول فى خارجها، وشاهد المعالم البارزة فى مدينة حماة ، وجلس علي نهر العاصى . ثم قصد السلطان الحمام والزرقاء[٣]بالبرية ، ومعه المظفر وعمه الأفضل فى رحلة صيد ، وصاد بهما كثيرا من الغزلان ، وحمر الوحش[٤].

---

(١) اعتقد فى هذا العدد مبالغة ، لأنه لو كان العدد على هذا النحو ، فكم كان عدد الآكلين؟

(٢) العينى : عقد الجمان ، جـ٣ ص ١١١ ، ١١٢.

(٣) منطقة من أعمال حلب أو سلمية ، وهى بلد عظيمة، وبالقرب منها الحمام وبها ماء حار ، صفى الدين البغدادى : مراصد الاطلاع ، جـ٢ ص ٦٦٢.

(٤) العينى : عقد الجمان ، جـ٣ ص ١١١ ، ١١٢.

وهكذا عاش السلطان الملك الأشرف الخليل أياما ممتعة " بحماة" وبلادها ، فى صحبة الملك المظفر وعمه الملك الأفضل ، ولقى من مضيفيه كل تكريم وتبجيل فاق الحد .

أما فى سنة ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م ، فكان دور السلطان الأشرف خليل فى تكريم صاحبيه الملك المظفر صاحب حماة وعمه الملك الأفضل .

والغريب أنه قد روعهما فى بداية الأمر إذ طلبهما إلى مصر على خيل البريد ، أى على وجه السرعة ودون أى استعداد لهذا السفر . فكان ذلك سبب انزعاج كل من المظفر والأفضل.

وعلى عكس ماتوقعا، شملهما السلطان خليل بالصدقات السلطانية بمجرد وصولهما فى اليوم الثامن من خروجهما من حماة، وأدخلا الحمام بقلعة الجبل، وأنعم عليهما بملبوس يليق بهما ، ثم أقاما فى صحبته أياما.

وبعدأيام من إقامتهما ، وزوال ماكان فيه المظفر والأفضل من الخوف الذى انتابهما فى بدايةالأمر ، طلبا من نوابهما بحماة سرعة إرسال تقادمهما [1] للسلطان . ثم خرجا مع السلطان على الهجن إلى الكرك ، فوصلت تقادمهما فى الطريق ، فقدماها للسلطان الأشرف.

وظلا فى صحبة السلطان بالكرك ، وسافرا معه أيضا إلى دمشق ومن دمشق إلى حمص، فسلمية ، ومع السلطان فى ذلك كله أكثر جيشه، ثم أخيرا دخل البرية وفى صحبته المظفر والأفضل للصيد فى هذه الجهات.

---

(١) التقادم مفردها تقدمة، وهى هدايا شبه واجبة يقدمها الأمراء الكبار عند حضورهم للسلطان.

ويبدو أن هذه المنطقة بما فيها صيد كثير ومتنوع قد أعجبت السلطان كثيرا، لما كان فى ضيافة المظفر والأفضل فى السنة الماضية. فوصلوا على هذا النحو إلى قصير[(١)] . وعندها أذن السلطان الأشرف خليل لصاحبيه بالعودة إلى بلادهما[(٢)]

ولم يكد يصل المظفر إلى حماة ، حتى انتدبه السلطان فى مهمة عسكرية. فخرج بجيشه ومعه عمه الأفضل وأولاد عمه الثلاثة بما فيهم الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل[(٣)].

ولما كان المظفر بجيشه فى نواحى حلب، أرسل السلطان الأشرف خليل في طلب الملك الأفضل عم المظفر لمصاحبته فى رحلة صيد. وكان السلطان قد أعجب به لخبرته الكبيرة فى معرفة الفهود وصيدها أيام أن كانا معا بالكرك . فسافر الأفضل إلى مصر منفردا وترك أولاده ثلاثة مع المظفر . ولكنه مات بدمشق عند مروره بها، فنقل إلى حماة ليدفن بها[(٤)].

وهكذا وعلي الرغم من قصر مدة حكم الأشرف خليل بن قلاوون، كثرت اللقاءات بين الأشرف والمظفر صاحب حماة فى أثناء هذه المدة الصغيرة

---

(١) ضيعة هى أول منزل لمن يريد حمص من دمشق ، صفى الدين البغدادى : مراصد الاطلاع ، جـ٣ ص ١١٠٣.

(٢) ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ٢ ص ٣٣٩ ، ٣٤٠، العينى : عقد الجمان ، جـ٣ ص ١٥٧ ، ١٥٨.

(٣) للمذكور حديث طويل قادم إن شاء الله .

(٤) ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ٢ ص ٣٤٠.

فى الحرب والسلم معا ، حتى أثمرت صداقة عميقة، وهذا بخلاف هواية الصيد الصعب التى ربطت بين السلطان والملك الأفضل عم الملك المظفر صاحب حماة.

بين المظفر والناصر محمد وكتبغا ولاجين :

قتل الأشرف خليل بن قلاوون ، فى مؤامرة دبرها له كبار مماليك أبيه بقيادة الأمير بيدرا نائب السلطنة ، غدرا وخسة مع أنه كان ملكا مهيبا، عالى الهمة ، تام الشكل ، كامل الشجاعة، وافر الكرم ، خفيف الركاب مظفرا فى حروبه، يملأ العيون ، ويرجف القلوب ، على حد قول المؤرخ الحسن بن عمر بن حبيب المتوفى سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٧م[١] ، وقال ابن حبيب فى هذا المعنى :

تبا لقوم بمالك رقهــــــم	فتكوا ومارقوا بحالة متــرف
وافوه غدرا ثم صالوا جملــــة	بالمشرفى على المليك الأشرف
ولى شهيدا نحو روضات الرضى	يختال بين مزهر ومزخــرف
ومضى يقول لقاتليه تربصـــوا	بينى وبينكم عراص الموقــف[٢]

ولم يكد يقتل السلطان الأشرف خليل ، حتى دخلت دولة سلاطين فى سلسلة من القلاقل والاضطرابات، حتى تولى السلطنة فى مصر فى خلال خمس سنوات وحوالى ثلاثة شهور كل من الناصر محمد بن قلاوون ، فزين

---

(١) ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ٢ ص ٣٤٠ .

(٢) ابن حبيب : درة الأسلاك ، ص ١١٩ ، تذكرة النبيه ، جـ١ ص ١٦٧ ، ١٦٨.

الدين كتبغا، فحسام الدين لاجين ، ثم الناصر محمد بن قلاوون فى بداية حكمه فى المرة الثانية[١].

ومن هنا لم تكن هناك علاقات تذكر ، بين المظفر محمود صاحب حماة، وهؤلاء السلاطين ، وإن لم تنقطع نهائيا فى نفس الوقت .

فلم نسمع مثلا أن المظفر محمود كانت له صلة بالناصر محمد بن قلاوون فى السنة التى تسلطن فيها، والتى امتدت من محرم سنة ٦٩٣هـ حتى محرم سنة ٦٩٤هـ . بخلاف أنه كان صغير السن وقتئذ[٢].

أما فى سلطنة السلطان زين الدين كتبغا، والتي بدأت من محرم ٦٩٤هـ إلى محرم ٦٩٦هـ ، فقد حدث أن السلطان كتبغا المنصورى ، توجه إلى دمشق ؛ لتقرير أحوالها فى شوال سنة ٦٩٥هـ ، فسافر إليها الملك المظفر محمود صاحب حماة، وذلك فى العشرين من نفس الشهر ، لتهنئة السلطان زين الدين كتبغا والسلام عليه ، فتلقاه السلطان ، وأكرمه[٣].

ثم فى عهد السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين، والذى امتد من محرم سنة ٦٩٦هـ إلى الحادى والعشرين من ربيع الآخر سنة ٦٩٨هـ ، شارك الملك المظفر صاحب حماة الجيوش المملوكية فى عدد من الغارات على على بلاد الأرمن ، ولكن السلطان لاجين لم يصاحب جيشه فيها [٤].

---

(١) عن ترجمة كل منهم انظر ، ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ، جـ٢ ص ٢٨٢، ترجمة رقم ٣٥٨ ، وص ٥٢١ ترجمة رقم ٤٤٨ ، ابن حبيب : تذكرة النبيه ، جـ١ ص ٢١٢.

(٢) المقريزى : السلوك ، جـ١ ص ٧٩٣ - ٨٠٦.

(٣) ابن حبيب : تذكرة النبيه ، جـ١ ص ١٨٥ ، المقريزى : السلوك ، جـ١ ص ٨١٦.

(٤) المقريزى : السلوك ، جـ١ ص ٨٣٣ ، ٨٣٧ - ٨٤١.

ولما عاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى سلطنته مرة أخرى ، فى السادس من جمادى الأولى سنة ٦٩٨هـ ، وعاد الهدوء أيضا لدولة سلاطين المماليك فى مصر ، أرسل الناصر بعد أن استقر فى السلطنة ، تقليدا للملك المظفر محمود صاحب حماة[١].

موت الملك المظفر :

كان آخر عمل شارك فيه الملك المظفر تقى الدين محمود صاحب حماة الجيش المملوكى ، بعد عودة الملك الناصر محمد بن قلاوون لملكه ، انفاذه عسكرا لمشاركة الجيش المملوكى لصد التتار المغيرين. وكان ذلك فى رمضان من سنة ٦٩٨هـ[٢].

ثم لم يلبث كثيرا حتى مرض المظفر فى ذى القعدة بالحمى. وكان سبب هذا المرض؛ أن المظفر أراد أن يرمى نسرا، فقصد جبل علا روز المطل على قسطون[٣] . وكان يوما حارا شديد الحرارة، وكان معه ابن عمه عماد الدين إسماعيل ، حيث طلبه من التجريدة التى خرجت إلى حلب لخدمته.

فصنع المظفر كوخا ليتقى به حرارة الشمس ، وقتل حمارا ليغرى النسر فى الوقوع عليه ليرميه ، واتفق نزول النسر على الفريسة، ولكن لم

---

(١) ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ٢ ص ٣٥١.

(٢) ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ٢ ص ٣٥١ .

(٣) قسطون : حصن كان بالروج من عمل حلب ، ياقوت : معجم البلدان ، باب القاف .

يقدر للمظفر رميه ، فطال انتظاره حتى انتنت الجيفة، فأدى ذلك إلى مرض الملك المظفر ، وكذا الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل الذى كان يصاحبه[١].

ثم اشتد المرض بالملك المظفر تقى الدين ، حتى أصبحت حمى محرقة، فلم يتحملها ، فتوفى فى يوم الخميس الثانى والعشرين [٢] من ذى القعدة سنة ٦٩٨هـ / ١٢٩٨م.

ومات رحمه الله تعالى عن إحدى وأربعين سنة، وعشرة أشهر وسبعة أيام. وكان مدة حكمه بحماة خمس عشرة سنة، وشهراواحدا [٣].

كتب إليه الإمام شهاب الدين أبو الثناء محمود بن سلمان الحلبى المتوفى سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٤م[٤].

أملت أنك لاتزال بكـــــــل   من عاداك من كل الأنام مظفرا
ورجوت أن تطأ الكواكب رفعـة   من فوق أعناق العدا وكذا جرى
فعلمت أن رجائى فيك محقـــق   كرجائى فيك بما رأيت وما أرى
قلنا الهناء وأننا فى جدك العالى   لنرجوا فوق ذلك مظهـــــرا [٥]

---

(١) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ص ٤١.

(٢) فى بعض المصادر الحادي والعشرين ، وفى تتمة المختصر ثانى عشر ، ولعله خطأ مطبعى ، النويرى : نهاية الأرب جـ٣١ ص ٣٧٩ ، ابن العماد : شذرات الذهب جـ٥ ص ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ابن الوردى : تتمة المختصر جـ٢ ص ٣٥٢.

(٣) أبو الفدا : المختصر جـ٤ ص ٤١ ، ٤٢.

(٤) عن ترجمته انظر: ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ترجمة محمود بن سلمان، الزركلى : الأعلام جـ٨ ص ٤٨.

(٥) ابن حبيب : تذكرة النبيه جـ١ ص ٢١٤.

الفصل الثالث

حماة نيابة بين مملكتين

عندما مات الملك المظفر تقى الدين محمود صاحب حماة ، أصدر الأمراء القائمون بالأمر فى عصر سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية، تقليداً بنقل الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى(١) من نيابة الصبيبة(٢) إلى مملكة حماة نائباً بها، وبذلك تحولت حماة من مملكة إلى نيابة، وحكامها من ملوك إلى نواب .

وانقطعت عندئذ ملك حماة بعد الملك المظفر ، من حكم أسرة المظفر الأول تقى الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبى، وذلك بعد أن دام حكمها بها، حتى هذا التاريخ مائة وأربعة وعشرين عاماً، من ٥٧٤هـ/١١٧٨م إلى ٦٩٨هـ/١٢٩٨م(٣) .

والغريب أن هذا القرار الخطير قد صدر ببساطة شديدة دون أدنى تفكير من أصحاب هذا القرار، فى ماضى هذه المدينة ، وكيانها الذاتى ، وشخصياتها المنفردة عن باقى مدن بلاد الشام، ودون أدنى مراعات للذين تداولوا حكمها عن طريق الوراثة الشرعية كابراً عن كابر، داخل أسرة ملكية عريقة .

---

(١) هو الأمير شمس الدين قراسنقر الجوكندار الجركسى المنصورى المتوفى بالمراغة من بلاد التتار، وكان هارباً بها، فى سنة ٧٢٨هـ، ابن حجر: الدرر الكامنة ، جـ٣ ص٢٤٦، ترجمة رقم ٦٢٥

(٢) الصبيبة : قلعة حصينة فى مدينة بنياس تقع غربي دمشق، أبو الفدا: تقويم البلدان، ص٢٤٨ .

(٣) أحمد السعيد : تاريخ الدول الإسلامية جـ١ ص١٤٧، الأسرة رقم (٥١، زامباور: معجم الأسرات الحاكمة، جـ١ ص١٥٣ .

والعجيب أيضاً أن تسقط مملكة حماة ، في لحظة ضعف من فترات حكم سلاطين المماليك، لافى زمن قوة، وفى فترة تراخى السلطة من أيدى سلاطين المماليك، لافى عهد السيطرة وإحكام القبضة. وكان من المنطق الطبعى، أن تزول هذه المملكة الصغيرة فى عهود القوة، وإحكام السيطرة، لافى فترات الضعف والتراخى .

وقد كان فى استطاعت السلاطين الكبار، السابقين للناصر محمد بن قلاوون، والذين أحكموا السيطرة على مقاليد دولة سلاطين المماليك فى مصر والشام، من أمثال الملك المظفر قطز، والملك الظاهر بيبرس البندقدارى، والسلطان قلاوون، والملك الأشرف خليل بن قلاوون، أن يزيلوا هذه المملكة الصغيرة، كما فعل المظفر قطز بعد انتصاره على المغول فى بلاد الشام، وكما فعل الظاهر بيبرس مع مملكتى حمص والكرك[1] .

ولكن جميعهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك مع مملكة حماة الأيوبية؛ وذلك احتراماً لهذه الأسرة العريقة، وتيمناً بصاحبة ملوكها ، خصوصاً أيام الحروب[2]، واستحساناً لسياسة هذه الأسرة حيال سلاطين المماليك فى مصر، فلم يخرجوا يوماً على الدولة المملوكية ، ولم يستغلوا ثورة من ثورات الأمراء فى بلاد الشام على الرغم من كثرتها، ولم يركبوا أمواجها، مع ماكان من إغراءات هؤلاء الثوار لهم. وشاركوا سلاطين المماليك، بكل قوة،

---

(١) انظر ماسبق ص ١٨ - ٢١ .

(٢) ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ٢ ص٣٣٢ .

وبلا أدنى تراخ فى جهادهم المستمر ضد الصليبيين من جهة، والتتار من جهة أخرى، والمملكة الأرمينية من جهة ثالثة[١] .

إذاً ماالذى حدث حتى تسقط هذه المملكة الهادئة والمسالمة لتقوم بدلها نيابة حماة؟

أسباب سقوط مملكة حماة:

كان ولابد أن تكون هناك أسباب جوهرية، فيما حدث لمملكة حماة، بخلاف الملابسات والظروف التى أحاطت بها من وجوه كثيرة ، وتتمثل هذه الأسباب وملابساتها فى الآتى :

أولاً : عدم وجود وريث من صلب المظفر :

من الواضح - من خلال الملابسات الآتية - أن الملك المظفر لم ينجب ابناً يرثه فى ملكه. صحيح أن المصادر الأصيلة ، لم تخبرنا صراحة ماإذا كان المظفر مات عن ولد، أم لم يكن له ولد، وإن كان سكوت المصادر عن ذلك إيجاباً أو سلباً، يرجع عدم وجود وريث للمظفر من صلبه[٢] .

والغريب أن المصادر التى أغلفت مثل هذا الخبر الهام - ربما دون قصد - قد اهتمت بذكر خبر طلاق الملك المظفر تقى الدين محمود لزوجته، وسفرها إلى مصر بعد طلاقها. وكانت هذه الزوجة ابنة خاله الملك الناصر

---

(١) انظر ماسبق من حديث فى عصرى الملك المنصور محمد وابنه المظفر محمود فى الفصلين السابقين .

(٢) انظر عن ذلك فى تراجم الملك المظفر فى المصادر السابقة .

صلاح الدين يوسف الأيوبى صاحب حلب ودمشق سابقا[١]، وقد نال الملك المظفر استقباح الناس له بسبب ذلك[٢].

فمن اهتموا بالحديث عن زواج الملك المظفر وطلاقه، لم يكن من الصعب عليهم الاهتمام بأولاده إن وجد له أولاد .

كذلك ذكرت المصادر أولاد عمه الملك الأفضل على ، فى كثير من الأحداث التاريخية، وقد مر علينا ذكرهم، وعلى وجه الخصوص الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل ابن الملك الأفضل، والذى كان يهتم به المظفر إلى درجة أنه كان يطلبه لخدمته من ميادين الحرب[٣].

وهذا بخلاف ماذكرناه سابقاً من أن الملك المؤيد قد مرض بالحمى بعد مرض ابن عمه الملك المظفر بها؛ مما يدل على مدى القرب بينهما.

وإن دل ذلك على شئ ، فإنه يدل على حرمانه من الولد .

ثانياً : الخلاف فى البيت التقوى :

كان أقرب الناس إلى الملك المظفر عند موته أولاد عمه الملك الأفضل على، وهم : أسد الدين عمر، وبدر الدين حسن، ثم عماد الدين الملك المؤيد إسماعيل[٤]. وبالتالي كان المفروض أن يكون الوريث الشرعى لمملكة حماة واحد من بين هؤلاء الأخوة الثلاثة :

---

(١) سبق ذكرنا له فى أحداث كثيرة سابقة .

(٢) النويرى : نهاية الأرب، جـ٣١ ص٢٤٤ .

(٣) أبو الفداء: المختصر ، جـ٤ ص٤١ .

(٤) ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ٢ ص٣٥٢ .

ويبدو أن الملك المؤيد كان أصغر الأخوة سناً لذكره آخراً فى ترتيب الأسماء بالمصادر،.وذلك بخلاف أنه كان مريضاً بالحمى أثناء موت المظفر .

أما الأخوان الآخران أسد الدين عمر، وبدر الدين حسن فكانا فى العسكر الحموى بحلب فى ذلك الوقت ، فلما سمعا بوفاة الملك المظفر، حضرا إلى حماة. ثم حدث خلاف كبير داخل أسرة تقى الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبى فيمن يولوه ملكاً على حماة. واستمر الخلاف على هذا النحو دون الوصول إلى حل، حتى عين الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى نائباً عن حماة[1] .

ثالثاً : ضعف السلطة المركزية :

لما أجلس الملك الناصر محمد بن قلاوون فى السلطنة للمرة الثانية، بعد مقتل السلطان حسام الدين لاجين المنصورى، لم يكن قد تجاوز عمر أربع عشرة سنة وأربعة أشهر[2]؛ لذا لم يكن فى يده حل ولاعقد، حتى ترك الملك الناصر الاستدعاء لما يريده من مأكل ومشرب لشدة الحجر عليه[3]، وصار ليس له من المملكة سوى الاسم، وذلك على حد قول المؤرخ الكبير تقى الدين المقريزى[4] .

---

(١) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ص ٤٢ .

(٢) ولد الناصر يوم السبت الخامس عشر من شهر المحرم سنة أربع وثمانين وستمائة وتولى السلطنة فى المرة الثانية فى يوم الاثنين السادس من شهر جمادى الأولى فيكون عمره على وجه التحقيق أربعة عشر عاماً وثلاثة شهور وواحد وعشرين يوماً. النويرى : نهاية الأرب، جـ٣١ ص١٢٥، ٣٧٠ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور جـ١ ص١ ص٤٢١ .

(٤) المقريزى : السلوك، جـ١ ص٨٧٩.

وكان الحل والعقد فى هذا التاريخ فى يد كل من الأمير سيف الدين سلار المنصورى[١] نائب السلطنة، والأمير بيبرس الجاشنكير[٢] الاستادار. فكان الأمراء يجتمعون بقلعة الجبل فى يوم الموكب عند السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ويقررون الأمور مع الأميرين بيبرس وسلار، فتصدر الأحوال عنهما .

فكان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى موقف لايحسد عليه؛ بسبب صغر سنه، وضعفه أمام أوصيائه من كبار الأمراء المماليك، ومما لاشك فيه أن هؤلاء الأمراء المتنافسين فى ظل سلطان ضعيف ماكانوا يقبلون وجود ملك جديد على حماة، وذلك لسببين ، وهما :

١ - لأنهم ماكانوا يطيقون وجود ملك وهم أمراء، ويكفيهم قبولهم الناصر محمد بن قلاوون ملكاً عليهم وذلك بالرغم منهم .

٢ - أصبحت حماة بعد خلوها من ملك لقمة سائغة، يسدون بها أفواه الطامعين منهم، والمتنافسين على السلطنة .

ولكن لو كان خيوط السيطرة كلها فى يد السلطان ماكان يضيره أن يكون بجواره مملكة صغيرة كحماة كما حدث قبل ذلك مع الملوك الأقوياء السابقين .

---

(١) هو سلار البهرى المنصور المتوفى سنة ٧١٠هـ، ابن حجر : الدرر الكامنة، جـ٢ ص١٧٩، ترجمة رقم ١٩١٣ .

(٢) هوالذى تسلطن فيما بعد، بعد عزل الناصر محمد بن قلاون تحت اسم الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير، ثم خنق أمام الناصر محمد بن قلاون فى توليته السلطنة فى المرة الثالثة ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، جـ٣ ص٤٦٧، ترجمة رقم ٧١٨ .

رابعاً : دور الأمير قراسنقر :

كان الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى أحد كبار الأمراء المنصورية فى مصر، وقد شارك فى قتل الملك الأشرف خليل، وشارك فى كثير من الفتن الدائرة فى هذا الوقت ، ووصل إلى أعلى مناصب الدولة، حتى أنه ولى نيابة السلطنة بالديار المصرية للسلطان حسام الدين لاجين. وقبض عليه لاجين وأودعه السجن مخافة منه. وظل بالسجن إلى أن قتل السلطان، فأفرج عنه كبار الأمراء القائمون بالأمر ، ولكنهم فى نفس الوقت أرادوا إبعاده عن القاهرة خوفاً من شره وخطره وكبر مقامه عنهم، فعينوه نائباً لقلعة الصبيبة وكانت قلعة صغيرة لاتليق بمكانته التى وصل إليها سابقاً. بخلاف ماكان فيها من وخم، ولكن لم يكن أمامه غير قبول الوظيفة الجديدة، فسافر إليها[١] .

ثم بعد أن أصبح حراً طليقاً بعيداً عن متناول أيدى الأمراء الجدد ونائباً عن قلعة، أخذ يشكوا من الصبيبة ، ويلح على نيابة أكبر تليق بمركزه، فتصادف فى نفس الوقت موت الملك المظفر تقى الدين محمود صاحب حماة، وخلو منصب الحاكم بها، فانتهز كل من الأميرين بيبرس وسلار هذه الفرصة المواتية، فبعثا إلى الأمير شمس الدين قراسنقر تقليداً بنيابة حماة .

وفى أوائل ذى الحجة من نفس السنة وصل الأمير قراسنقر إلى حماة، ونزل بدار الملك المظفر تقى الدين محمود صاحب حماة[٢] .

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ١ ص٧٧٥، ٧٨٨، ٧٩٠، ٧٩٣، ٧٩٥، ٨٠٣، ٨١٢، ٨١٩، ٨٢١، ٨٢٩، ٨٦١، ٨٧٣، ٨٧٨ .

(٢) ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ٢ ص٣٥٢ .

وهكذا أصبحت حماة نيابة كغيرها من نيابات الشام ، بعد أن كانت مملكة يشار إليها بالبنان، وأصبح قراسنقر أول نائب على حماة[١] .

ودون شك كان هذا الانقلاب الخطير الذى حدث فى حماة وتحولها إلى نيابة، قد أثر فيها تأثيراً سلبياً كبيراً؛ ذلك لأن حماة بوضعها الجديد ، فقدت استقرارها الذى كانت تنعم به دون غيرها من البلاد التابعة للدولة المملوكية فى بلاد الشام .

فقد كانت حماة تحت ظل ملوكها من بنى أيوب ، هادئة مطمئنة على حياتها اليومية والمستقبلية، دون كدر، أو قلق ، فأهلها كانوا على علم بملوكها وتربوا فيها ، وكان ملوكها يتعاملون مع حماة بصرف النظر من أنهم من أصل كردى، على أنها بلدهم التى نشأوا بها، وتربوا فى ربوعها ومروجها. واندمجوا مع أهلها ، حتى أصبح لهم جميعاً آمال متحدة، ومشارب واحدة. فعاش أهل حماة راضين بملوكهم ، وعاش ملوكها قانعون بما قسم الله لهم من ناس وبلدة. بدليل تلك الحياة الهادئة والممتدة التى عاشاها كلا الطرفين .

---

(١) ظل الأمير شمس الدين قراسنقر فى نفس طريقه فى الاشتغال بالفتن، وتدبير المؤامرات، وتقلد المناصب الكبيرة إلى أن هرب فى نهاية الأمر إلى بلاد التتار، وعينه التتار نائباً بالمراغة ، وظل سنيناً طويلة إلى أن سم نفسه ومات خوفاً من إعادته للناصر محمد بن قلاوون ، بعد أن تقرر الصلح بين المماليك ومغول إيران، ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطه ص٧٦ - ٧٨، ابن حجر : الدرر الكامنة، جـ٣ ص٢٤٦، ترجمة رقم ٦٢٥ .

ومن المعروف أن ملوك حماة كانوا من بيت عريق وشهير، وتداولوا ملك حماة كابراً عن كابر، ولهم بها أملاك كبيرة ، وأرزاق كثيرة، فلا يطمعون بما فى أيدى غيرهم من الأمراء أو الملوك .

واختلف أمر حماة بوضعها الحديث ، رأساً على عقب ، فقد أصبحت السلطة بها فى يد المماليك ، وكانت السمة العامة فيهم عدم الاستقرار، والانقلابات المفاجئة دونما سابق إنذار، والثورات التي لاتهدأ ، سواء كانت فى عاصمة البلاد بالقاهرة، أو فى إحدى أقاليمها ببلاد الشام. مما كان يؤدى إلى التغيير العشوائى للنواب، لسبب وبلاسبب؛ وذلك إما إرضاء من القائمين بمقاليد الأمور بالقاهرة لأتباعهم من الأمراء، وأما إبعاد لأعدائهم من الأمراء الأقوياء بطريقة غير مباشرة .

كذلك كان المماليك بلا أصول ثابتة ، ولاجزور ممتدة، لذلك كان تعاملهم مع رعاياهم فى غالب أمرهم على هذا الأساس دون مراعات لخاطر، بلا احترام للأصول. وهذا بخلاف ماطبعوا عليه من الطمع والجشع، والنظر لما فى أيدى الغير .

وكان أول مافعله الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى النائب الجديد لحماة، نزوله فى دار المظفر ، دون مراعات لخاطر هذه الأسرة الملكية العريقة التى نكبت فى ملكها ، ودون حرج لاقتحام بيت مات صاحبه منذ أيام قلائل .

ولم يكن كذلك فقط بل إمتد طمعه وجشعه حتى أخذ الأمير قراسنقر من تركة الملك المظفر صاحب حماة رحمه الله تعالى، بل زاد على ذلك بسلب كثير من الأشياء الخاصة بأولاد الملك الأفضل على، عم الملك المظفر ، حتى

ظلمهم، وأجحف بهم، وذلك على حد قول أبى الفدا الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل[١] .

نواب السلطنة فى حماة:

تقلد منصب السلطنة فى حماة ، بعد موت صاحبها الملك المظفر تقى الدين محمود الأيوبى أربعة نواب رئيسين، وذلك بخلاف من تولاها نيابة عن أحد الأمراء بصفة مؤقتة ، أو من قبل المغول الذين استولوا على بلاد الشام بين شهرى ربيع الأول وشعبان من سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م[٢] .

وهؤلاء النواب هم :

١ - الأمير شمس الدين قراسنقر :

وقد تقلد الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى - كما رأينا - منذ أوائل ذى الحجة سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م. ولم يستمر بها طويلاً بسبب استيلاء المغول عليها ، ضمن البلاد الشامية فى شهر ربيع الأول سنة ٦٩٩هـ .

ولما عادت الجيوش المغولية، وعاد المماليك إلى بلاد الشام فى شهر شعبان ، وذلك بعد أحداث طويلة - لامجال لذكرها هنا - عين الأمير شمس الدين قراسنقر فى نيابة السلطنة بحلب، بدلاً من نيابة حماة[٣].

---

(١) أبو الفدا: المختصر ، جـ٤ ص٤٢ .

(٢) انظر عن هذه الأحداث، المقريزى السلوك، جـ١ ص٨٨٥ - ٩٠١، فايد حماد عاشور: العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص١٤١ - ١٥٨، عبد السلام عبد العزيز: تاريخ الدولة المغولية ص٢٠١ - ٢٠٦ .

(٣) النويري : نهاية الأرب ، جـ٣١ ص٤٠٥ .

وقد استولى على مقاليد الأمور بحماة فى فترة السيطرة المغولية على بلاد الشام ، شخص اسمه عثمان السبيتارى، كان من جاندراية[١] الأمير شمس الدين قراسنقر، وكان رجلاً عنيفاً ، فاسداً، حتى أنه استباح الحريم، وأموال أهل حماة ، وسفك دماء الأبرياء. بل وبلغت به الجرأة حتى أنه لقب نفسه بالملك الرحيم .

ولما عادت الجيوش المملوكية إلى حماة عصى عثمان بن معه، وتحصن بقلعة حماة، إلا أن أصحابه تخلوا عنه فضعف فقبض عليه، وكثرت الشكايات فيه من أهل حماة. فلما مر قراسنقر على حماة فى طريقه إلى نيابة حلب، وعرف حكاية عثمان هذا، وماستولى عليه من أموال حماة تبرطل[٢] منه؛ لإنقاذه من براثنهم، وأخذه معه إلى حلب .

ثم لما تولى بعد ذلك بسنين عديدة أبو الفدا عماد الدين إسماعيل بن الملك الأفضل على نيابة حماة ، تتبع عثمان فى البلاد الشامية حتى أمسك به ، وضرب عنقه فى سوق الخيل بحضرة العسكر فى يوم الاثنين رابع عشر شعبان سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م[٣] .

---

(١) الجاندارية: فئة من مماليك السلطان أو الأمير ، وهى مركبه من لفظين فارسيين، أحدهما جان : ومعناه سلاح ، والثانى دار: ومعناه ممسك، وعملهم حراسة باب السلطان أو الأمير، وأميرهم يستأذن للداخل عند السلطان أو الأمير، القلقشندى: صبح الأعشى ، جـ٤ ص٢٠، البقلى: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٨٢ .

(٢) البرطلة : الرشوة، أحمد عبد الرازق : البذل والبرطلة ص١١ .

(٣) أبو الفدا: المختصر ، جـ٤ ص٤٤، ٤٥ .

٢ - الأمير زين الدين كتبغا :

تولى الأمير زين الدين كتبغا نيابة حماة، بعد عودة العسكر المملوكى إلى بلاد الشام ، وخروج المغول منها، فى الرابع والعشرين من سنة ٦٩٩هـ.

وكتبغا هذا هو الذى كان قد تولى السلطنة المملوكية بين سنتى ٦٩٤ و ٦٩٦ هـ، ثم عين بعد عزله من السلطنة نائباً لقلعة صرخد [١]، وخرج منها عند الهجوم المغولى على بلاد الشام ، فحضر إلى مصر، ثم عين أخيراً نائباً للسلطنة فى حماة. وتوفى بها بعد قليل بمرض الشلل فى ليلة الجمعة عاشر ذى الحجة سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م [٢] .

٣ - الأمير سيف الدين قبجق :

بعد موت الأمير زين الدين كتبغا ، عين فى مكانه فى نيابة حماة الأمير سيف الدين قبجق . وكان المذكور نائباً بالشوبك [٣] قبل تعيينه فى حماة. فسار إليها من الشوبك بعد أن جهز أشغاله بها، ووصل إلى حماة فى صبيحة يوم السبت الثالث والعشرين من صفر سنة ٧٠٢هـ، ونزل بدار الملك المظفر صاحب حماة [٤] .

---

(١) صرخد : قلعة حصينة من أعمال دمشق ، ياقوت : معجم البلدان، باب الخاء .

(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ٣١ ص٣١٦، ٣٢٠، ابن حجر : الدرر الكامنة جـ٣ ص٢٦٢ ، ترجمة رقم ٦٨١ .

(٣) الشوبك : قلعة حصينة فى أطراف الشام، بين عمان وايلة قرب الكرك، صفى الدين البغدادى : مراصد الاطلاع ، جـ٢ ص٨١٨ .

(٤) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ص٥٠ .

وظل الأمير سيف الدين قبجق فى نيابة حماة ، حتى عودة الناصر محمد بن قلاوون من إقامته الاختيارية بالكرك فى سلطنته الثالثة فى مستهل شوال سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م. وكان ذهابه إليها وترك سلطنته ؛ بسبب تسلط كل من الأميرين بيبرس الجاشنكير الأستادار - الذى تقلد السلطنة منتهزاً هذه الفرصة - والأمير سلار نائب السلطنة على شئونه، واستبدادهما بالأمور دونه(١).

فلما عاد الناصر إلى السلطنة، بعد ثورة غالب الأمراء فى مصر والشام ضد السلطان بيبرس الجاشنكير، أعاد- بعد أن حنكته التجارب الماضية - ترتيب النيابات فى مصر والشام، بصورة تضمن له السيطرة على مقاليد الأمور فى البلاد المملوكية ، وإحكام قبضته على الأمراء، وكان ضمن هذا الترتيب تعيين الأمير قبجق فى نيابة السلطنة بحلب، بدلاً من حماة، وكان ذلك فى يوم الجمعة الثالث من شوال من نفس العام(٢) .

٤ - الأمير أسندمر كرجى :

لما شغرت نيابة حماة من نائب، بعد نقل الأمير سيف الدين قبجق منها إلى نيابة حلب، كاد الناصر محمد بن قلاوون ، أن يعيد أصحابها السابقين من بنى المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبى، وذلك لوعود قد قطعها - كما سنرى ذلك لاحقاً - إلا أنه قد بدى فى الأمر مامنعه من

---

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٨ ص١٧٠ - ١٨١ ، جـ٩ ص ٣ - ٥ .

(٢) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ص٥٨، ابن تغرى بردى : النجوم، جـ٩ ص١١ .

الاقدام على ذلك. فأصدر عندئذ قراراً بتقليد الأمير سيف الدين أسندمر كرجى فى نيابة السلطنة بحماة[١] .

وكان الأمير كرجى نائباً لطرابلس قبل هذه الأحداث الأخيرة، ثم حضر إلى الديار المصرية مع من حضر من الأمراء مع الناصر محمد بن قلاوون . وكان أسندمر من كبار الأمراء الذين صانعهم فى بداية الأمر لاستقراره فى ملكه ، وفى نفسه القبض عليهم. فأخره السلطان الناصر من الذهاب إلى حماة لينجز له بعض أغراضه ، وأخيراً سمح له بالسفر إلى مقر نيابته بحماة إلي أن يجد الفرصة المناسبة للقبض عليه[٢].

وفي أثناء هذه المدة التى غاب فيها الأمير أسندمر، عن نيابته بحماة كان قد أرسل الأمير بدر الدين بيليك السديدى[٣] لحكم حماة نيابة عن الأمير أسندمر. وأخيراً وصل إلى نيابته بحماة فى يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من شهر محرم سنة ٧١٠ هـ/ ١٣١٠م. ولم يكن نظيف اليد أثناء حكمه بحماة إذ تعرض لأموال الناس بها[٤]. ، ولم يستمر

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ص٧٥ .

(٢) المقريزى: السلوك ، جـ٢ ص٦٨، ٧٥، ٧٩ - ٨٢ .

(٣) فى مطبوعة المختصر تتليك بتائين، ولم أجد اسماً تركياً بهذا الرسم بخلاف كثرة وجود بيليك ، كذلك لم أجد للمذكور ترجمة وربما كان بيليك بن عبد الله الحموى المتوفى سنة ٧٣١هـ ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ١ ص٥١٥ رقم ١٣٩٨، وعن رسم بيليك انظر ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، جـ٣ ص٥١١ = ٥١٥ .

(٤) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ص٥٩، ٦٠، ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ٢ ص٣٦٩، ٣٧٠.

الأمير أسندمر كثيراً فى نيابة حماه ، حيث انتقل إلى نيابة السلطنة بحلب، بعد وفاة نائبها الأمير قبجق فى جمادى الآخرة من نفس العام ، وذلك بناء على طلبه[(١)] .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية، جـ١٤ ص٥٩ .

الفصل الرابع

عودة حماة للبيت التقوى

فى الثامن عشر من جمادى الأولى سنة ٧١٠هـ / ١٣١٠م، أصدر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون تقليدا، بتعيين أبى الفدا عماد الدين إسماعيل بن الملك الأفضل على ابن الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبى فى نيابة السلطنة بحماة[١].

وهكذا عادت حماة إلى أصحابها السابقين من البيت التقوى الأيوبى، بعد أن ظلت حماة خارج حكم هذه الأسرة مدة إحدى عشرة سنة ، وخمسة أشهر، وسبعة وعشرين يوما ، وذلك منذ وفاة الملك المظفر تقى الدين محمود ، فى يوم الخميس الثانى والعشرين من ذى القعدة من سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م، وحتى تاريخ صدور التقليد، لأبى الفدا عماد الدين إسماعيل بنيابة السلطنة فى حماة[٢].

ولم تأت هذه العودة – دون شك- بسهولة ويسر ، بل جاءت بعد قصة طويلة من العمل المضنى ، والجهد المتواصل، من قبل أبى الفدا عماد الدين إسماعيل ابن الملك الأفضل على. ولولا مابذله عماد الدين فى سبيل إحياء البيت التقوى فى حماة مرة أخرى من جهد وعرق، ومشاركات وصداقات ، لما تحققت لهذه الأسرة أمانيها، ولا كتب وجود لها.

---

(١) ابن حبيب : تذكرة النبيه ، جـ٢ ص ٢٨ ، تقى الدين السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ، جـ٦ ص٨٤.

(٢) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ص ٦١.

دور عماد الدين فى عودة حماة :

كان لأبى الفدا عماد الدين دور كبير فى عودة حماة لحكم أسرة المظفر تقى الدين عمر . وقد بدأ عماد الدين محاولاته منذ وفاة نائب حماة زين الدين كتبغا المنصورى سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م ؛ ذلك أنه أرسل بعد موت المذكور إلتماسا للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، يسأله فيه إعادة الحكم له كقاعدة أهله[١].

ويقول أبو الفدا عماد الدين ، إن رسوله الذى أرسله إلى الناصر بالديار المصرية، وصل إليها بعد أن خرج الأمر من يد السلطان، إذ أنه قد أصدر بمشاورة كبار الأمراء قبل وصول قاصد عماد الدين، تقليدا للأمير سيف الدين قبجق بنيابة السلطنة بحلب. ولكنه فى نفس الوقت وعده بها عندما تحين الظروف المناسبة. وكتب له كتابا يطيب خاطره، ويعتذر له لما حدث[٢].

وظل أبو الفدا عماد الدين، ينتظر على أمل هذه الفرصة المواتية. مع قيامه فى نفس الوقت بخدمة نائب السلطنة بحماة ، الأمير سيف الدين قبجق أجل الخدمات ، دون ملل أو كلل ، وتنفيذ أوامره بكل دقة ، بلا حقد أو ضغينة ، وما تخلى عن واجباته المنوطة إليه ، وعلى وجه الخصوص- المشاركة فى الوقائع الحربية مع عسكر حماة، إلا لمانع قوى كذهابه إلى الأراضى المقدسة بالحجاز؛ لأداء فريضة الحج سنة ٧٠٣هـ[٣].

---

(١) ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ٢ ص٣٥٩ ، ٣٦٠.

(٢) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ص ٤٩ ، ٥٠ .

(٣) ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ٢ ث ٣٦١ ، ٣٦٢.

وطال انتظار عماد الدين . حتى ترك الملك الناصر محمد بن قلاوون الملك باختياره؛ بسبب تسلط كل من الأمير بيبرس الجاشنكير، والأمير سلار نائب السلطنة على مقاليد الأمور والحجر عليه. وذهب إلى الكرك فى شهر رمضان من سنة ٧٠٨هـ /١٣٠٨م، واستقر بها بعيدا عنهما.

فلما قامت ثورة الأمراء فى مصر والشام ضد الملك المظفر بيبرس الجاشنكير، وخرج الملك الناصر من الكرك إلى دمشق للإجتماع بالأمراء الثائرين فيها، كان أبو الفدا عماد الدين إسماعيل أحد المجردين فى جيش حماة، فالتقى عماد الدين فى دمشق بالسلطان الملك الناصر قبل تحركهم جميعا إلى الديار المصرية، وقدم عماد الدين للسلطان هدايا جليلة، وكان منها مملوكه طقز تمر؛ الذى أصبح بعد سنين أحد كبار الأمراء بالديار المصرية[(١)].

وعلى الرغم من مرور سنوات عديدة على الوعد، الذى وعد به الناصر لعماد الدين، إلا أن السلطان لم ينس ما وعد به ، وكرر له الوعد بحماة، وذلك على عادة أهله وأقاربه من بنى المظفر[(٢)].

ولما استقر الناصر بالديار المصرية بقلعة الجبل، وفى صحبته جموع الأمراء والمماليك الذين أتوا معه من البلاد الشامية، أخذ فى توزيع النيابات الشامية، فقلد عندئذ الأمير سيف الدين قبجق نيابة السلطنة

---

(١) هو طقز تمر أو طقز دمر بن عبد الله المنصورى المتوفى سنة ٧٤٦، ابن حبيب : تذكرة النبيه جـ٣ ص ٨٠، ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ٢ ص ٢٢٥ ، ترجمة رقم ٢٠٤٢.

(٢) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ص ٥١.

بحلب بدلا من حماة، وقلد الأمير الحاج بهادر الظاهرى[١] فى نيابة السلطنة بحماة. ثم ألغى السلطان هذا القرار الأخير، وعين المذكور فى نيابة السلطنة بالفتوحات[٢] بطرابلس، وماحولها من القلاع، وذلك بعد عزل الأمير أسندمر كرجى منها[٣].

فخلت بذلك نيابة حماة من نائب ، بعد انتقال نائبها الأمير قبجق إلى حلب، وبعد إلغاء قرار التعيين الذى صدر للأمير الحاج بهادر الظاهرى. وأصبحت تقريبا الظروف مواتية للملك الناصر محمد بن قلاوون لتحقيق ماوعد به عماد الدين إسماعيل، ولكنه توقف عن إصدار قرار بهذا الشأن، واعتذر لعماد الدين ببعض المهام والأشغال، التى تعوق إصدار مثل هذا القرار، فى هذه الآونة. ولم ينس أن يعده مرة أخرى بحماة؛ وذلك عندما يحين الوقت المناسب. ثم أمره الناصر بالعودة بجيش حماة صحبة الأمير سيف الدين قبجق الذاهب إلى حلب[٤].

---

(١) هو بهادر بن عبد الله المنصورى، المعروف بالحاج بهادر، الذى توفى سنة ٧١٠هـ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، جـ٣ ص ٤٣٦ رقم ٧١٢.

(٢) الفتوحات : تعبير عن طرابلس والقلاع التى فتحت مستجدة فى عهد قلاوون والأشرف خليل بن قلاوون.

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٩ ص١١، ابن الوردى : تتمة المختصر جـ٢ ص ٣٦٨.

(٤) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ص ٥٨.

ويبدو أن مسألة حماة ، وإعادتها للبيت التقوى أصبحت مسألة وقت فقط، وأنها فى طريقها إليهم بالفعل ، بدليل الخلاف الحاد الذى حدث بين عماد الدين إسماعيل ابن الملك الأفضل على وأخيه الأكبر بدر الدين حسن الذى كان يتطلع الى حماة أيضا ويسعى إليها بطريقته وذلك من أجل ملك حماه[١]، حتى أنه لما احتدم هذا الخلاف، حضر إليهما الأمير مهنا بن عيسى[٢]، وأمير آل فضل فى بلاد الشام ، فى يوم الأربعاء الخامس من ذى الحجة سنة ٧٠٩هـ، لدرء هذا الخلاف ، والتوفيق بين الأخوين ، ولكنه عجز عن التوفيق بينهما ، ولما يصل لطائل فى هذا الخلاف[٣].

كذلك كان الخلاف محتدما من جهة أخرى ، بين عماد الدين إسماعيل، وبين الأمير أسندمركرجى - وكان أحد كبار الأمراء الذين كان يصانعهم الناصر محمد بن قلاوون ويداريهم فى هذا الوقت حتى تستقر له أمور الدولة، ويقبض على أعنتها. وكان هذا الخلاف بسبب ميل الأمير أسندمر كرجى لأخيه بدر الدين حسن وتفضيله عليه، وسعيه فى تعيينه بحماة.

ولما رأى الأمير أسندمر ميل السلطان الملك الناصر لعماد الدين ورغبته فى تقليده، عندها طلب أسندمر من السلطان نيابة حماة لنفسه، ولم

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة، جـ٢ ص٢٨ ترجمة رقم ١٥٣٩

(٢) هو مهنا بن عيسى بن مهنا أمير آل فضل فى الشام، والمتوفى سنة ٧٥٣هـ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ٤ ص ٣٦٨ ترجمة رقم ١٠٠٤.

(٣) أبو الفدا : المختصر، جـ٤ ص٥٩.

يكن أمام السلطان وقتها إلا قبول طلبه ، وذلك مداراة له، ومصانعته لحين . فأصدر تقليدا للأمير أسندمر كرجى فى نيابة السلطنة بحماة[١].

وعندما تم تعيين الأمير أسندمر فى حماة، ووصلت الأخبار لعماد الدين إسماعيل، خشى على نفسه منه؛ لاستحكام خاطر الأمير فى عداوته، فخرج عماد الدين إسماعيل من حماة، بحجة استقبال الأمير أسندمر نائب حماة الجديد، وسار إلى دمشق ، وفى نفس الوقت أرسل سرا إلى الناصر محمد بن قلاوون ، يطلب منه الأذن بالسماح له بالإقامة فى دمشق ، فإذن له السلطان ؛ وذلك لإدراكه بالخلاف الحادث بين الطرفين. وأرسل مع رسول عماد الدين فوق الإذن خلعة، ورسم له ببغلة من حواصل دمشق[٢].

ولما اقترب الأمير أسندمر من دمشق فى طريقه إلى حماة، خرج عماد الدين إسماعيل لاستقباله عند الكسوة[٣]، خارج دمشق؛ احتراما للأمير، وذلك مع مابينهما من خلاف ، ولكن أسندمر قابله بغضب شديد لخروجه عن حكمه، وسكناه بدمشق . ثم أخذ فى خداعه مرة، واستمالته مرة أخرى، وتطييب خطاره مرة ثالثة، لأخذه معه إلى حماة ، إلا أن عماد الدين إسماعيل أصر على موقفه فى عدم الذهاب إلى حماة.

---

(١) ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ٢ ص ٣٦٧.

(٢) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ص ٥٩.

(٣) الكسوة : قرية قرب دمشق ، وهى أول المنازل للحاج، ولمن يريد مصر، صفى الدين البغدادى : مراصد الاطلاع ، جـ٣ ص ١٦٦.

فالتجأ الأمير أسندمر عندئذ إلى نائب دمشق، وطلب منه إرسال عماد الدين إسماعيل معه إلى حماة طوعا أو كرها، فامتنع النائب عن ذلك لوضوح القرار الصادر من الملك الناصر فى هذا الشأن. وعندما فشل الأمير أسندمر فى أخذ عماد الدين معه بكل الوجوه ، سافر بدونه إلى مقر نيابته ممتلئا حنقا وغيظا من عماد الدين[١].

استقرار عماد الدين فى نيابة حماة :

لم يمض وقت طويل على استقرار الأمير أسندمر فى نيابة حماة، حتى مات الأمير الحاج بهادر نائب الفتوحات بطرابلس، فى نفس الوقت كان أمير العرب بالشام مهنا بن عيسى فى زيارة للناصر محمد بن قلاوون بالديار المصرية ليتوسط لعماد الدين أبى الفدا إسماعيل، فأجابه، ووعده بحماة بدلا من أسندمر كرجى[٢].

ويبدو أن الظروف قد أصبحت مواتية للناصر محمد بن قلاوون فى إصدار قرار ظل يرجئه كثيرا لسنوات عديدة، فكان أن كتب تقليـــدا لعماد الدين إسماعيل بنيابة حماة والمعرة وبارين، وذلك بتاريخ الثامن عشر من جمادى الأولى سنة ٧١٠ هـ / ١٣١٠م وقد صدر فى نفس الوقت تقليد بنقل الأمير أسندمر من حماة ، إلى نيابة الفتوحات بطرابلس.

فلما وصل التقليد لعماد الدين فى دمشق ، خرج ذاهبا إلي مقر نيابته بحماة ، لكن الأمير أسندمر عندما وصل إليه التقليد بانتقاله إلــى

---

(١) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ص ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ص ٨٧.

الفتوحات بطرابلس، رد التقليد غاضبا ، وامتنع عن الخروج من نيابة حماة، كما منع دخول عماد الدين إسماعيل فيها، حتى إلى درجة أنه عزم على قتاله، فتوقف عماد الدين بين حماة وحمص حيال ماحدث منتظرا مرسوم السلطان[١].

فاتفق في نفس وقت هذه الأحداث موت الأمير سيف الدين قبجق نائب السلطنة بحلب، فانتهز الأمير أسندمر كرجى هذا الفرصة، ورأى فى نفس الوقت ترك معاندة السلطان بالتمسك بحماة ، بنصيحة بعض الأمراء ، فخرج اسندمر من حماة وسار إلى حلب ، وكتب أثناء سيره كتابا للسلطان يسأله نيابة السلطنة بحلب. ولم يجد الملك الناصر بدا من استجابة طلب الأمير أسندمر، وقلده نيابة حلب، وهو ينتوى له نية جازمة للخلاص منه ، لليه ذراعه فى مسألة نيابة حلب[٢].

وكان خروج الأمير أسندمر من حماة فى ضحى يوم الاثنين الموافق الثالث والعشرين من جمادى الآخره سنة ٧١٠هـ ، وعلى أثره دخل عماد الدين إسماعيل حماة، وسكن دار ابن عمه الملك المظفر تقى الدين محمود.

وهكذا استقر عماد الدين أبو الفدا إسماعيل فى نيابة السلطنة بحماة بعد جهد جهيد وسط فرحة غامرة لأهل حماة، واستقبال رائع لعسكر حماة، وفى هذا يقول زين الدين عمر بن الوردى :

---

(١) أ و الفدا : المختصر ، جـ٤ ص ٦٠ ، ٦١ ، المقريزى : السلوك، جـ٢ ص ٨٩.

(٢) استطاع الناصر بتدبير محكم من القبض على الأمير أسندمر ، بعد أن تولى نيابة حلب بشهور قليلة ، ومات أسندمر بسجن الكرك سنة ٧١١هـ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، جـ٩ ص٢٣-٢٧ ، المنهل الصافى ، جـ٢ ص ٤٤٣ ترجمة رقم ٤٦٥.

وفاز المؤيد فى يومـــــــه بما كان يرجوه فى أمســـه
وكم قد شكا الحيف من دهره فأنصفه الدهر من نفســـه(١)

* * * *

ومن خلال ماذكرناه من أحداث آنفا نستطيع أن نلتقط ملحوظتين هامتين:

الأولى : إن عودة أسرة بنى المظفر فى حكم حماة ، لم تأت إلا بعد سيطرة الناصر محمد بن قلاوون ، على مقاليد الأمور فى دولة سلاطين المماليك فى مصر، فقد لاحظنا أنه على الرغم من كثرة وعوده لعماد الدين إسماعيل فى تعيينه فى نيابة السلطنة بحماة على قاعدة أهله، لم يستطع تنفيذ وعوده ، والإيفاء بها؛ ذلك لأن مقاليد الأمور لم تكن فى يد الناصر محمد بن قلاوون، بالرغم من أنه سلطان البلاد ، فقد كانت مقاليد السلطة موزعة فى يد كبار الأمراء. وكان من المستحيل - حيال ذلك - عودة حماة للبيت التقوى.

فلما عاد السلطان الملك الناصر محمد لسطنته الثالثة، بعد تجريبتين فاشلتين ، جاء وفى نيته - بعد أن حنكته التجارب المرة السابقة - ألا يفشل فى هذه المرة ، وأن يعيد الأمور إلى نصابها، وأن يقطع أى عنق يطاول عنقه. فعمل لذلك منذ اللحظة الأولى لعودته فى الديار المصرية، واستخدم فى تحقيق أهدافه، كل الأساليب التى تعلمها من أمرائه الكبار، من تخطيط، ودهاء، وخداع ، وتدبير المؤامرات المحكمة، حتى تفوق فيها

---

(١) ابن حبيب : تذكرة النبيه ، جـ٢ ص ٢٨.

جميعا على أساتذته . حتى قضى عليهم جميعا بسلاحهم ، وأعاد عندئذ للديار المصرية والشامية هدوءها ، واستقرارها، مدة اثنين وثلاثين عاما تقريبا، هي مدة سلطنته الثالثة التي امتدت من ٧٠٩-٧٤١هـ/ ١٣٠٩-١٣٤٠م[١].

ومن هنا كان تمكنه الأخير في استصدار القرارات من وحي نفسه، ودون إملاء من كبار أمرائه كما كان سابقا.

الثانية : أن حماة عندما عادت للبيت التقوى في هذا التاريخ، في شخص عماد الدين إسماعيل، لم تكن مملكة كما كانت، ولكنها كانت نيابة، كغيرها من نيابات البلاد الشامية، يقول أبو الفدا : "وأعطيت حماة في هذه المرة على قاعدة النواب" [٢].

لذا كان وعد الناصر لعماد الدين منقوصا، فلم يأخذ لقب ملك كأسلافه في الماضي، مع أن وعود الناصر لعماد الدين كانت إعادة مملكة حماة له على قاعدة أسلافه من البيت التقوى[٣].

---

(١) عن بعض صفات الناصر محمد بن قلاوون، انظر ، ابن حجر: الدرر الكامنة، جـ٤ ص١٤٤ ، ترجمة رقم ٣٨٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٩ ص ٣ وماتليها ، لينبول : سيرة القاهرة ، ص ١٨٥.

(٢) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ص ٦٠ .

(٣) أبو الفدا: المختصر ، جـ٤ ٤٩ ، ٥٠.

ويبدو أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، لم يرد أن يعطى كل شيئ لعماد الدين مرة واحدة، وأراد أن يتدرج معه فى عطائه، مختبرا له فى نفس الوقت فى كل درجة من درجات عطائه . فنجد أنه قد منحه النيابة أولا، ثم أعطاه الملك بعد سنتين. وأخيرا حقق الناصر محمد بن قلاوون كامل وعوده لعماد الدين إسماعيل حيث منحه فى سنة ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م لقب السلطنة (١) ، كما ستتبين ذلك لاحقا.

كذلك كان قرار تعيين عماد الدين إسماعيل فى نيابة السلطنة بحماة جاء فى بداية سيطرة الملك الناصر على مقاليد السلطنة فى البلاد المملوكية دون الأمراء ، فكان من الصعب إثارة بعض مماليكه الآخرين بتقليد عماد الدين بأكثر من نيابة فى هذا الوقت.

كذلك نلاحظ أن اختيار الناصر لعماد الدين إسماعيل ، دون أخيه بدر الدين حسن، بالرغم من أن الأخير كان أسن من عماد الدين، وسعى بدوره لمملكة حماة دون طائل(٢). جاء نتيجة للمودة القوية التى - ربطت بين الناصر وعماد الدين ، والوعود التى قطعها له ، بصرف النظر عن الأحق بحماة من الأخرين.

ونستطيع أن نقول، أنه لما كان تعيين عماد الدين نائبا لحماة، وليس ملكا لها أو سلطانا، جعل الناصر محمد بن قلاوون فى حل فى تعيين من يريده؛ لأن النيابة غير وراثية كالمملكة أو السلطنة.

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ، جـ٢٩ ص ٤١٠ ، ٤١١.

(٢) أبو الفدا : المختصر جـ٤ ص ، ٩٥ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ٢ ص ٢٨ ترجمة رقم ١٥٣٩.

عودة مملكة حماة:

قلنا آنفا أن الناصر محمد بن قلاوون وفى بتعيين عماد الدين إسماعيل فى نيابة السلطنة بحماة بنصف ماوعد به سابقا، لأن عهده كان على أساس إعادة عماد الدين إلى حماة ، على قاعدة أصحابها من أسلافه السابقين، وأصحاب حماة- كما رأينا - كانوا ملوكا على أيامهم، وبالتالى لم يكن الوفاء بالعهد على تمامه. وقد عللنا لهذا السبب سابقا.

ويبدو أن عماد الدين إسماعيل كان يشعر فى قرارة نفسه بأن تعيينه نائبا لحماة عملية مرحلية؛ لذا رأيناه قد تقبل النيابة بصدر رحب، وسعادة غامرة، مع مابين النيابة والمملكة من مساحة واسعة.

حتى أن عماد الدين لفرط سعادته بما أولاه بها الملك الناصر محمد بن قلاوون، سارع بالذهاب إلى الديار المصرية فى نفس عام تعيينه ، بعد أن أخذ إذن السلطان فى مسيره إليه، وذلك لتقديم واجب الشكر ، ورد ما على رقبته من دين كبير . فالتقى بالسلطان الملك الناصر لأول مرة بعد تعيينه نائبا لحماة ، فقدم له بالغ شكره وامتنانه ، معبرا على ذلك بهدايا قيمة قدمها للسلطان(١).

ولم يكن السلطان الناصر أقل كرما من عماد الدين، فقد أفاض عليه بكرمه، وعلى من كان فى صحبته، وخلع عليهم جميعا بأنواع من الملابس، كما قدم لعماد الدين أيضا مركوبا ونفقة لسفره(٢).

---

(١) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ص ٦٢.

(٢) أبو الفدا : المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة.

ثم عاد عماد الدين إسماعيل من الديار المصرية إلى بلاده، لبدء مرحلة جديدة فى خدمة السلطان، وتنفيذ مايوكل إليه من مهام سلطانية. وكان منها المشاركة بعسكره فى القبض على الأمير أسندمر كرجى نائب السلطنة بحلب ، كما قام بغيرها من المهام[١].

وهكذا إنشغل عماد الدين إسماعيل بأمور نيابة حماة، دون أن يشغل نفسه كثيرا فى أمر تحقيق النصف الثانى من وعد السلطان محمد بن قلاوون له بإعادة مملكة حماة.

وإذا كان عماد الدين إسماعيل قد تشاغل عن مسألة مملكة حماة فإن الملك الناصر لم ينس وعده، ولا تشاغل عنه، إذ أنه انتظر الوقت المناسب لإصدار هذا القرار، فلما جاء الوقت المناسب منح الأمير عماد الدين إسماعيل ملك حماة. وذلك بتاريخ الخامس والعشرين من ربيع الآخر سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م، أى قبل مضي سنة ونصف من تقلده نيابة السلطنة بحماه.

ويبدو أن الملك الناصر قد طلب الأمير عماد الدين لهذا الأمر دون أن يخبره بما فى نفسه، فحضر عماد الدين إلى قلعة الجبل بالقاهرة، فى يوم الاثنين العاشر من ربيع الآخر مع خيل البريد، سابقا صبيانه ، وماكانوا يحملونه من تقدمه للسلطان.

وكان أول بادرة توضح نية السلطان باستقدام الأمير عماد الدين نائب السلطنة بحماة، أن آفاض عليه بالتشريف السلطانى على عادته ، ثم أمر بنزوله فى مناظر الكبش التى تعود أصحاب حماة النزول فيها . وأخيـــرا

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ص ٩١.

أصدر قرارا بتقليد الأمير عماد الدين إسماعيل مملكة حماة ، والمعرة ، وبارين . فكتب له التقليد ، وجاء فيه :

" فلذلك رسم بالأمر الشريف العالى المولوى السلطانى الملكى الناصرى الباهرى . لازالت الماليك مغمورة من عطائه، والملوك تسرى من ظل كنفه تحت مسبول غطائه، أن يستقر فى يد المقام العالى العمادى المشار إليه جميع المملكة الحموية، وبلادها وأعمالها. وهو منسوب إليها ومباشرها التى يعرضها قلمه وقسمه، ومنابرها التى يذكر فيها اسم الله تعالى واسمه، وكثيرها وقليلها، وحقيرها وجليلها ، على عادة الشهيد الملك المظفر تقى الدين محمود إلى حين وفاته" (١).

وبعد أن تم كتابة التقليد أركب الناصر عماد الدين صاحب حماة بشعار المملكة ، ولقبه بالملك الصالح ، ومشت الأمراء الكبار بالديار المصرية فى خدمته(٢).

ثم أذن الملك الناصر لصاحب حماة عماد الدين إسماعيل بالعودة إلى بلاده، وذلك بعد أن خلع عليه ، وعلى أصحابه ، وشرفه بمركوب بسرجه ولجامه، ومنحه فوق هذا التكريم الجليل بثلاثين ألف درهم، وخمسين قطعة من القماش (٣).

---

(١) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ص ٦٧ ، ٦٨.

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ ١ ص ٣٧١، ترجمة رقم ٩٤١، ابن تغرى بردى: المنهل الصافى ، جـ٢ ص ٣٩٩ ، ترجمة رقم ٤٣٧ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، جـ ٤ ص ٦٧.

ولم يقف كرم السلطان لعماد الدين صاحب حماة عند هذا الحد فقط، بل امتدت منحه وعطاياه حتى فى بلده حماة ، حتى أنه أرسل مرسومه إلى حماة قبل تحرك صاحب حماة من مصر، بخروج الأمراء المستجدين فى حماة، بعد موت الملك المظفر تقى الدين محمود صاحب حماة ، حتى لايكونوا عوامل تعويق لعماد الدين وسيادته فى مملكته. فخرج الأمراء المستجدون بمجرد وصول المرسوم، ولم يبيتوا بها، وانتقلوا بأهليهم وجندهم إلى حلب. فلما وصل صاحب حماة لم يجد أحدا من الأمراء ، غير من اختار مقامهم مسبقا عنده بحماة. ويقول أبو الفدا عماد الدين صاحب حماة فى هذا الشأن، وموضحا شفقة الملك الناصر عليه وصدقاته العميمة" وكان هذا من أعظم الشفقة والصدقة"(١).

والملاحظ أن كثيرا من المؤرخين قد تغافلوا عن ذكر هذا الحديث بينما اهتموا بسلطنة عماد الدين فى سنة ٧٢٠هـ ، ولا أدرى لذلك سببا غير أنهم رأوا أن هذا التقليد لم يحدث تغييرا كبيرا فى حماة ، ولا فى سلطة صاحبها بها.

ولكن بعد انفراج أزمة هؤلاء الأمراء الغرباء بخروجهم من حماة، وذهابهم إلى حلب ، وارتياح بال الملك عماد الدين إسماعيل صاحب حماة ، وزوال همومه ، ظهرت مشكلة لم تكن فى الحسبان، حتى أنها أعادت ماكان فى قلب عماد الدين صاحب حماة من هموم.

---

(١) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ص ٦٨ ، ٦٩.

وتمثلت هذه المشكلة، فى أن هؤلاء الأمراء ذهبوا إلى حلب بينما بقيت اقطاعاتهم بحماة؛ مما خلق ازدواجية فى حياتهم المعيشية. حيث أصبح سكناهم بحلب ، وأرزاقهم بحماة. حتى أنهم بذلك قد تركوا عند خروجهم من حماة مسمار جحا، مما جعل علاقتهم بحماة غير منتهية، وأطماعهم فيها تظل باقية.

وقد جاهد هؤلاء الأمراء فى سبيل عودتهم مرة أخرى إلى حماة جهادا متواصلا، وذلك تارة بالإلحاح على الملك الناصر محمد بن قلاوون، فى سبيل إعادتهم بالشفاعات، وتارة بالسعى فى إخراج عماد الدين من حماة.

فلما وجد الملك عماد الدين صاحب حماة خطورة مسعى هؤلاء الأمراء، هداه تفكيره لحسم هذا الأمر، وإغلاق أبواب سعيهم عند السلطان، تعيين المعرة وبلادها إقطاعا لهؤلاء الأمراء، وإضافتها إلى حلب؛ ليخلص أولا من مشكلة هؤلاء الأمراء، ولينفرد هو بحماة وبارين منفصلة عن الممالك الشريفة السلطانية ، ولو كان ذلك بأفدح الأثمان.

وقد عرض عماد الدين إسماعيل صاحب حماة هذا الحل للسلطان الملك الناصر عندما ذهب إليه فى دمشق، وكان السلطان فى زيارتها فى بداية سنة ٧١٣هـ قادما إليها من الأراضى المقدسة بالحجاز[١].

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ص ١٢٢ ، ابن الوردى : تتمة المختصر، جـ٢ ص ٢٧٣.

وعلى الرغم من أن الناصر محمد بن قلاوون حاول إثناء صاحب حماة عن هذا الحل القادح الذى يفقده جزءا كبيرا من مملكته؛ إلا أنه وجد فيه حلا عمليا لهذه المشكلة ولو كان مؤقتا.

فلما وافق الناصر محمد بن قلاوون على اخراج المعرة من تبعية حماة كطلب صاحب حماة، كتب تقليدا جديدا للملك عماد الدين إسماعيل، باستقراره ملكا على حماة وبارين بجميع حدودهما وماهو منسوب إليهما؛ من بلاد وضياع ، وقرايا وجهات ، وأموال ومعاملات، وغير ذلك.

وعندما تم كتابة التقليد الجديد لصاحب حماة، أراد الملك الناصر أن يعوضه ببعض التعويض المعنوى ، مقابل ماخسره عماد الدين إسماعيل بخروج المعرة من بلاده. فتصدق عليه بخلعة ثانية، وأنعم عليه بسنجق بعصائب[١] سلطانية ، يحمل على رأسه فى المواكب وغيرها ، بالرغم من أن هذا من اختصاصات السلاطين ، ولايسوغ لأحد غيرهم حمله[٢].

وقد استمرت المعرة خارجة عن تبعية أمها حماة إلى جمادى الآخرة من سنة ٧١٦هـ /١٣١٦م ، حيث أعادها السلطان لعماد الدين صاحب حماة بتقليد جديد فى هذا التاريخ ، مع الانعام عليه بكثير من الخلع، والتشاريف المختلفة[٣].

---

(١) العصائب ، مفردها العصابة : وهى راية عظيمة من حرير أصفر مطرز بالذهب، وعليها ألقاب السلطان، وتحمل فى المواكب السلطانية القلقشندى : صبح الأعشى جـ٤ ص٨.

(٢) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ص٧١، ٧٢ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ص٧٨، ٧٩.

سلطنة عماد الدين إسماعيل:

مر على منح السلطان الملك الناصر ملك حماه للملك المؤيد عماد الدين إسماعيل ثمان سنوات، حتى إذا ماجاءت سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م قرر الملك الناصر تقليد الملك عماد الدين إسماعيل سلطانا على حماة وكان الملك عماد الدين قد حضر إلى الديار المصرية، فى الرابع والعشرين من شوال سنة ٧١٩هـ؛ وذلك بناء على طلب السلطان لمشاركته فى الحج إلى بيت الله الحرام، فسار معه من الديار المصرية إلى الأراضى المقدسة بالحجاز ثم عاد معه إلى مصر بعد أدائهما لمناسك الحج(١).

ولما استقر الحال بالسلطان محمد بن قلاوون وعماد الدين إسماعيل فى مصر، خلع السلطان على صاحب حماة خلعة السلطنة، وكان قد وعده بها أثناء العودة من البلاد الحجازية.

وكان صاحب حماة ينزل فى هذا التاريخ بدار القاضى كريم الدين(٢) ناظر الخاصة السلطانية(٣)، داخل باب زويلة بالقرب من بين القصرين. فركب منها بشعار السلطنة. ونترك الآن أبا الفدا إسماعيل يحدثنا عن نفسه فى ركوبه بشعار السلطنة.

---

(١) ابن حبيب : تذكرة النبيه ، جـ ٢ ص ٩٩ ، المقريزى : السلوك ، جـ٢ ص ١٩٧، ١٩٨.

(٢) هو أكرم بن هبة الله القبطى ، كريم الدين الكبير ، والذى تسمى بعد إسلامه بـ " عبد الكريم" توفى سنة ٧٢٤هـ. ابن حجر : الدرر الكامنة، جـ١ ص٤٠١ رقم ١٠٣٧.

(٣) هو المشرف عل خاص أموال السلطان، القلقشندى: أصبح الأعشى جـ٥ ص ٤٦٥.

يقول أبو الفدا :"وأقمت هناك، وتقدم مرسوم السلطان بإرسال شعار السلطنة إلىّ ، فحضرت الموالى والأمراء ، وهم سيف الدين ألماس[١] أمير حاجب، وسيف الدين قجليس[٢]، والأمير علاء الدين أيدغمش[٣] أمير آخور[٤]، والأمير ركن الدين بيبرس الأحمدى[٥]، والأمير سيف الدين طينال[٦] أمير حاجب أيضاً، وحضر من الأمراء الخاصكية تقدير عشريـــن

---

(١) هو ألماس بن عبد الله الناصرى ، حاجب الحجاب فى دولة الناصر محمد بن قلاوون ، وتوفى سنة ، سنة ٧٣٤هـ، ابن تغرى بردى: المنهل الصافى، جـ٣ ص ٨٩، ترجمة رقم ٥٤٩.

(٢) هو قجليس الناصرى السلاحدار المتوفى سنة ٧٣١ ، ابن حجر : الدرر الكامنة، جـ٣ ص٢٤٣ رقم ٦١٩.

(٣) هو أيدغمش بن عبد الله الناصرى الطباخى ، الأمير علاء الدين ، توفى أثناء نيابته لدمشق سنة ٧٤٣هـ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، جـ٣ ص ١٦٥ رقم ٥٩٧.

(٤) آخور : المعلف، وأمير آخور : أى متولى أمر الاصطبلات السلطانية ويتولى أمر ما فيه من الخيل والابل، القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٥ص ٤٦١، عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك جـ٢ ص ٣٦-٤٠.

(٥) هو بيبرس بن عبد الله الأحمدى، أمير جندار ، كان أحد أعيان أمراء الدولة، توفى سنة ٧٤٦هـ ، ابن تغرى بردى: المنهل الصافى، جـ٣ ص٤٧٩، رقم ٧٢٤.

(٦) هو طينال الأشرفى الحاجب، أحد كبار الأمراء ، توفى سنة ٧٤٣هـ ابن حجر: الدرر الكامنة، جـ٢ ص ٢٣٢ ، ترجمة رقم ٢٠٦٦.

وحضر صحبتهم التشريف الأطلس الكامل المزركش[(١)]، والنمجا[(٢)] الشريفة السلطانية، والغاشية المنسوجة بالذهب المصرى، وعليها القبة، والطير[(٣)]، وثلاثة سناجق ، وعصائب[(٤)]، وتقليد يتضمن السلطنة، والجمدارية[(٥)] السلطانية وسلاحدار بسيفين معلقين على كتفه، والشاويشية.

---

(١) الأطلس: نسيج من الحرير ، والمعنى أن التشريف بكامله أى اللباس الفوقانى والتحتانى من الأطلس المزركش، وكانت خلعة الملك المؤيد أبى الفدا من أعلى أنواع الخلع، القلقشندى : صبح الأعشى جـ٤ ص ٥٢- ٥٤ ، البقلى : التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٧٦ ، ٧٧ ، ماير : الملابس المملوكية ص١٠٥، المعجم الوجيز فى (طلس).

(٢) النمجا: خنجر مقوس يشبه السيف القصير وهو معرب اللفظ الفارسى نيمجة، البقلى : التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ، ص ٣٥٢.

(٣) القبة أو الجتر : وهى عبارة عن مظلة من حرير أصفر مزركش بالذهب على أعلاها طائر شبه الحمامة من فضة مذهبة تكون على رأس السلطان فى الموكب، القلقشندى : صبح الأعشي جـ٤ ص ٧، ٨ ، عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ، جـ٢ ص ٩١ ، ٩٢.

(٤) مفردها العصابة : وهى راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب عليها ألقاب السلطان، تحمل فى المواكب السلطانية، القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤ ص٨، سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٤٥٧.

(٥) الجمدارية واحدها جمدار . وهو الذى يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه، وهو مركب من لفظين فارسيين أحدهما جاما ، ومعناه الثوب ، والثانى دار ومعناه ممسك، فيكون المعنى ممسك الثوب ، القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٥ ص ٤٤٩.

وحضر جميع ذلك إلى المدرسة المنصورية[١] بين القصرين، وقدم لي حصان كامل العدة. فركبته بكرة الخميس سابع عشر المحرم، الموافق للثامن والعشرين من شباط بالشعار المذكور، ومشت الأمراء إلى أثناء الطريق وركبوا. ولما قاربت قلعة الجبل نزلوا جميعهم، واستمريت حتى وصلت إلى قرب باب القلعة، ونزلت وقبلت الأرض للسلطان إلى جهة القلعة، وقبلت التقليد الشريف ثم أعدت تقبيل الأرض مرارا. ثم طلعت صحبة النائب، وهو المقر السيفي أرغون الدوادار[٢] إلى القلعة.

وحضرت بين يدى السلطان في ضحوة النهار المذكور ، فقبلت الأرض، فأولاني من الصدقة مالا يفعله الوالد مع ولده"[٣].

وهكذا كان ركوب عماد الدين إسماعيل صاحب حماة بشعار السلطنة حتى قلعة الجبل، ومثل بين يدى السلطان،فأجلسه السلطان الناصر محمد بن

---

(١) مدرسة أنشأها السلطان قلاوون بخط بين القصرين بالقاهرة من داخل باب المارستان المنصوري الذى أنشأه قلاوون أ ضا. المقريزي : الخطط ، جـ٢ ص ٣٧٩ ، ٣٨٠.

(٢) هو أرغون شاه بن عبد الله الدوادار الناصري المتوفى سنة ٧٣١هـ/ ١٣٣٠م، الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٨ ص ٣٥٨ ، ترجمة رقم ٣٧٩١، ابن حبيب : درة الأسلاك، ص ٢٦٧ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ، جـ٢ ص٣٠٦ ترجمة رقم ٣٦٧.

(٣) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ص ٨٧.

قلاوون فى الإيوان على رأس الميمنة، ولقبه عندئذ بالملك المؤيد، بعد أن كان ملقبا بالملك الصالح[١].

وسافر الملك المؤيد من يومه بعد ماجهزه السلطان بسائر مايحتاج إليه، وركب فى سفره خيل البريد، وشعار السلطنة صحبته على أحد أفراس البريد. وعندما اقترب من حماة، خرج من بها من الأمراء والقضاة لملاقاته وتهنئته، فركب بشعار السلطنة، ودخل حماة ضحوة نهار السبت السادس والعشرين من المحرم من سنة ٧٢٠هـ، وقرئ تقليد السلطنة لمستقبليه بحماه[٢].

وبتقليد الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن الملك الأفضل على صاحب حماة سلطانا على البلاد الحموية، عادت جميع الامتيازات التى فقدتها أسرة بنى المظفر الأيوبى، بموت الملك المظفر تقى الدين محمود صاحب حماة سنة ٦٩٨ هـ/ ١٢٩٨م ، كما عادت لحماة ميزتها كمملكة بين باقى مدن بلاد الشام.

بل إن ماكان بين الناصر محمد بن قلاوون والملك المؤيد إسماعيل صاحب حماة، من صداقة حميمة، ومودة كبيرة ، قد أضفى على الأسرة التقوية بحماة ، بميزات لم تكن لها قبل هذا التاريخ.

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ص ٢٠٢ ، ابن حجر : الدرر الكامنة، جـ١ ص ٣٧١، ترجمة رقم ٩٤١.

(٢) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ص ٨٧ ، ٨٨.

وكان من أهم هذه الميزات التى ميزت الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل ، عن أسلافه من ملوك حماة ، هى :

١- المكاتبة إليه بـ " يقبل الأرض" :

فقد أرسل السلطان الناصر محمد بن قلاوون مراسيم إلي نواب البلاد الشامية، أن يكتبوا فى مكاتباتهم إلى الملك المؤيد إسماعيل فى مفتتح مكاتباتهم له بـ " يقبل الأرض" وهو مايدل على تعظيم المكتوب إليه، ولم يكتب بذلك لمن سبقوه (١).

٢- التلقيب بـ " المقام الشريف" .

والمقام من الألقاب الأصول ، وكان أعلى الألقاب الأصول المستخدمة فى ديوان الانشاء بدولة سلاطين المماليك للسلاطين وولاة عهودهم . والشريف من الألقاب التوابع ، ولا يلى إلا أعلى الألقاب الأصول ، كالجانب ، والمقام ، والجناب ، ومن الواضح أن الناصر محمد بن قلاوون قد أمر أن يكاتب المؤيد بلقب ملوكى أعلى درجة من ألقاب سابقيه من أسلافه من ملوك حماة ، فقد كوتب الملك المنصور محمد بـ " المقام العالى " وهذا اللقب دون " المقام الشريف" (٢).

* * * *

---

(١) المحبى : تشنيف التعريف بالمصطلح الشريف ص ٣٢٦ - ٤٣٠ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، جـ٢ ص ٤٠٠.

(٢) انظر ماسبق ذكره فى هذا الأمر ، ص ٥٢ .

بين الناصر والمؤيد:

من يتتبع تفاصيل العلاقة التى ربطت بين السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، والملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة - خلافا لما سبق - يستشف نوعا من العلاقات النادرة بين رجلين ، ويستشعر رباطا من حرير ناعم يربط بين قلبيهما ، وذلك بالرغم من كونهما ملكين ،وربما أفسد مابينهما التنافس والغيرة، وحب الذات ، ووسوسات النفس ، وطنين الآذان.

ولقد امتدت هذه العلاقة الأخوية القوية، بنفس مستوياتها الراقية، بين كل من الناصر والمؤيد صاحب حماة اثنتين وعشرين سنة، وذلك من يوم تقليد المؤيد نائبا سنة ٧١٠هـ / ١٣م ، وحتى وفاته فى سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م. وكانت كلما امتدت السنين بهما، كلما ازدادت علاقتهما تأصلا وشفافية. وكلما قلنا أن هذه الحادثة، كانت أرقاها توضيحا لأعلى درجات المودة بين الناصر والمؤيد ، تلتها حادثة أخرى أنصع بياضا، ورقيا من سابقتها.

وكانت زيارات الملك المؤيد المتواصلة للناصر محمد بن قلاوون، بالديار المصرية فى أحايين كثيرة، وبدمشق أحيانا، ومصاحبته للناصر فى حجه، ورحلات صيده كطلبه، كان النسيج الذى تشكلت به أزهى العلاقات بين الملكين(١).

---

(١) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ص٩٠، ٩٣ ، ابن حبيب : تذكرة النبيه، جـ ٢ ص ٩٩، المقريزى : السلوك ، جـ٢ ص ١٦٦ ، ١٩٧، ٢٣٨.

يقول ابن تغرى بردى: "وكان الملك المؤيد فى كل قليل يتوجه من حماة إلى القاهرة، ومعه أنواع الهدايا والتحف للملك الناصر محمد بن قلاوون، ويعود إلى محل سلطنته ، ثم فى كل قليل يتحف الملك الناصر بالأشياء الطريفة الغريبة" [١].

وكان الناصر محمد بن قلاوون يسارع بالرد على هدايا الملك المؤيد صاحب حماة بإنعاماته المختلفة، وعطاياه الكثيرة، سواء كانت مادية أو معنوية. بل وفى كثير من الأحيان كانت أياديه تفوق أيادى الملك المؤيد.

وكان من عادة الناصر أن يرسل سنويا اثنين من خيل برقة بالعدة الكاملة ، له ولابنه محمد بن الملك المؤيد إسماعيل. وكان الملك المؤيد وابنه يركبان الخيلين عند وصولهما بالعسكر فى احتفال رسمى كبير [٢].

ولم تكن صدقات الناصر وعطاياه قاصرة على المؤيد صاحب حماة، بل امتدت إلى أهل بيته ومن حوله من كبار أمرائه ، حتى أنه كان يبالغ فى أنواع الصدقات إليهم جميعا [٣].

وقد حضرت زوجة المؤيد إسماعيل صاحب حماة فى سنة ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م إلى الديار المصرية عن طريق البحر ، وفى خدمتها مايقارب ثلاثة آلاف نفر من رجال ونساء ، وقد أحتفل بهم إلى غاية مايكون ، وهوت عليهم الإنعامات والوصولات [٤].

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، جـ٢ ص ٤٠٠ ترجمة رقم ٤٣٧.

(٢) أبو الفدى : المختصر ، جـ٤ ص ٩٥ ، ٩٨.

(٣) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ص ٩٣.

(٤) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ص ٨٨.

أما بالنسبة لابن المؤيد الأمير محمد، فقد منحه الملك الناصر فى سنة ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م، وذلك بعد تقليد المؤيد سلطانا على البلاد الحموية بقليل، وفى نفس العام إمرة طبلخاناه[(١)] ، ويكون فى خدمته ستون مملوكا، وذلك بخلاف ماتصدق به عليه من تشريف ، وكان عبارة عن أطلس أحمر بطرز زركش، وقندس[(٢)]، وتحتانى أطلس أصفر، وشربوش[(٣)] مكلل باللؤلؤ. وقد منح الأمير محمد بن الملك المؤيد صاحب حماة، هذه الأمرة الكبيرة، وهو ابن تسع سنوات[(٤)].

ومن قوة المودة والصداقة التى ربطت بين الملك الناصر محمد بن قلاوون، والملك المؤيد إسماعيل صاحب حماة، كان الناصر يتعامل مع المؤيد إسماعيل برحمة وشفقة، حتى فى تعاملاته الرسمية معه. وقد حدث فى سنة ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م، جدب شديد بأرض الشام من دمشق حتى حلب؛ حيث انحبس المطر، ولم ينبت شئ من الزراعات.

---

(١) رتبة عسكرية جليلة، تأتى تاليا لأعلى الرتب العسكرية فى العصر المملوكى ، ويكون فى خدمته مابين أربعين إلى ثمانين مملوكا، المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٢١٥، عبد المنعم ماجد : نظم دولة المماليك جـ١ ص ١٤٦.

(٢) القندس : حيوان صغير ذو فرو ، ولعله الثعلب التركى ، ويستخدم فروه فى تبطين الملابس، عبد المنعم ماجد : نظم دولة المماليك جـ٢ ص ٦٨.

(٣) قلنسوة طويلة تلبس بدل العمامة، وكانت شارة خاصة بالأمراء، ماير : الملابس المملوكية ص ٥١.

(٤) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ص ٨٩ ، ٩٠.

وعندئذ سارع الملك الناصر بإرسال مرسوم إلى الملك المؤيد صاحب حماة يمنعه فيه من إرسال قوده. وكان قوده المقرر عليه فى كل عام عبارة عن عدد من الخيل والإبل والحيوانات النادرة، كما كان مقررا على العرب أيضا[١].

ولكن وعلى الرغم من أن الملك الناصر ، قد منع المؤيد من إرسال قوده السنوى؛ لجدب أرض الشام فى هذا العام، نرى الملك المؤيد صاحب حماة، يجود بما لديه من هدايا للملك الناصر ، ولو كان ذلك يسيرا. فما كان من الناصر حيال ذلك إلا أن يتصدق على الملك المؤيد بتشريف كامل، بالإضافة إلى ستين قطعة من القماش الاسكندرى، كما أرسل له فوق ماذكرنا خمسين ألف درهم ، وألف مكوك[٢] حنطة، حتى يعوضه بعض ماخسره من جدب هذا العام[٣].

كذلك نلمس فى وضوح شفقة الملك الناصر محمد بن قلاوون على الملك المؤيد صاحب حماة ، حين قدم الأخير لمصر فى سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م؛ وذلك بناء على طلب السلطان الملك الناصر ليصاحبه فى رحلات الصيد التى ينتوى القيام بها.

---

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٤٦٣.

(٢) نوع من المكاييل المستعملة فى بعض بلاد الشام، ويسع صاعا ونصف ، ويزن ما في الصاع ثمانية الأرطال ، فيكون وزن الحنطة كلها تقريبا اثنا عشر ألف رطل. ابراهيم طرخان : النظم الاقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى ، ص٥١٦ ، ٥١٧.

(٣) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ص ٩٢.

وقد سافر الملك المؤيد من حماة فى الرابع من ذى القعدة ومعه ابنه الأمير محمد، فمرض الأخير قرب بلبيس فى جهات الشرقية بحمى شديدة، وأصبح والمؤيد- بسبب ما اعترى ابنه فى شدة عظيمة.

فلما سمع الناصر بما حدث سارع بإرسال خيل للمؤيد وابنه بسروجهما. فوصلا بهما قرب سرياقوس[١]، فأنزلهما السلطان بعمائره الجديدة بها. ولم يكد يستقبلهما حتى بعث إلى رئيس الأطباء جمال الدين إبراهيم ابن المغربى[٢]؛ ليشرف على علاج بن المؤيد، فحضر الطبيب ولزم مريضه. والعجيب أن الملك المؤيد كان يحضر صباحا ومساء يبحث مع الطبيب فى مرض ابنه، ويقرر الدواء، ويطبخه فى دست فضة، حتى قال له ابن المغربى:[٣] ياخوند! أنت والله ما تحتاج الىّ ، وما أجيه إلا امتثالا لأمر السلطان.

ولما عاد السلطان إلى قلعة الجبل بالقاهرة، أرسل إلى الملك المؤيد صاحب حماة وابنه حراقه[٤] نيلية؛ لينقلهما عن طريق النيل إلى القاهرة،

---

(١) منطقة تقع خارج القاهرة من شمالها، وقد بنى فيها الناصر محمد بن قلاوون خانقاه شهيرة وبعض القصور فى سنة ٧٢٥هـ. المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٤٢٢، ٤٢٣.

(٢) هو إبراهيم بن أحمد بن المصرى المتوفى سنة ٧٥٦هـ ، ابن حجر : الدرر الكامنة جـ١ ص ١٦ ترجمة رقم ٢٦.

(٣) الصفدى : الوافى بالوفيات ، جـ٩ ص ١٧٥.

(٤) الحراقة : نوع من السفن الحربية، وقد استخدم نوع منها فى النيل أثناء الاستعراضات التى تقام فى الحفلات ، سعيد عاشور : العصور المماليكى ص ٤٣٠.

وذلك لما لمسه الناصر من صعوبة سفرهما عن طريق الخيل، بسبب مرض الأمير محمد ابن الملك المؤيد.

وقد كثرت هبات الناصر وصدقاته للملك المؤيد وابنه أثناء تواجدهما بالقاهرة، وذلك على الرغم من أن الملك المؤيد كان ينقطع كثيرا عن خدمة السلطان لمرض ولده، وظل الناصر يلتمس له العذر شفقة عليه وعلى ولده.

ثم أخذ صاحب حماه بعد أن تماثل ولده للشفاء فى مصاحبة الملك الناصر فى زياراته للبلاد الجيزية والمنوفية، والسلطان فى كل هذا لايتوقف عن كرمه وبره ، وتشاريفه أيضا ، حتى أنه خلع عليه قباء مذهبا بطرز ذهب مصرى ، لم يصنع مثله فى كبره وحسنه قبل ذلك[١].

وظل الملك المؤيد صاحب حماة فى ضيافة الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وفى خدمته. وحتى بداية ربيع الأول من سنة ٧٢٨ هـ فأذن له السلطان بالعودة إلى بلاده، فخرج فى هذا التاريخ ، وخرج معه السلطان لوداعه حتى سرياقوس. ثم سافر منها فى اليوم التالى، بعد أن خلع عليه السلطان الناصر وعلى ولده محمد تشاريف حسنة فوق العادة ، وحوائص الذهب المجوهرة، والقماش الفاخر من عمل دار الطراز بالاسكندرية، وأهداه فوق ذلك كله الصناقر والصقور والشواهين من طيور الصيد الجارحة، وذلك لاستخدامها فى رحلات الصيد. ثم وهبه أخيرا فوق ماتقدم ثلاثة آلاف دينار مصرية[٢].

---

(١) أبو الفدا : المختصر ، جـ٢ ص ٩٦.

(٢) أبو الفدا : المصدر السابق جـ٤ ص ٩٦-٩٨.

فوصل الملك المؤيد إلى مملكته بحماة، فى الثانى والعشرين من ربيع الأول سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م . أى أنه ظل خارج بلاده فى هذه السفرة الطويلة حوالى أربعة أشهر ونصف، فى أطول ضيافة عاشها فى ظل الملك الناصر محمد بن قلاوون[١].

وكانت آخر زيارات الملك المؤيد صاحب حماة للناصر محمد بن قلاوون بالديار المصرية سنة ٧٣٠هـ/١٣٢٩م ، وقد حضر إليها فى العشرين من محرم منها، فأكرمه السلطان عند استقباله له غاية الكرم كعادته.

وبعد أن أخذ المؤيد صاحب حماة قسطا من الراحة من سفره الطويل، وفى ضيافة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، توجه السلطان إلى صعيد مصر ، وفى صحبته الملك المؤيد إسماعيل . وعسكر السلطان قليلا فى بداية الطريق عند أهرامات الجيزة، ثم واصل جولته فى صعيد مصر بن معه ، حتى وصل إلى بلدة " هو" [٢] القريبة من مدينة قوص وقد انتهت هذه الجولة التفقدية لصعيد مصر، بعد حوالى شهرين من بداية خروج السلطان بن معه من القاهرة ، وحتى عودته فى الخامس من ربيع الآخر، ثم أخير سافر الملك المؤيد صاحب حماة بعد ثلاثة أيام من هذا التاريخ عائد إلى بلاده. وبعد أن غاب عنها حوالى ثلاثة شهور[٣].

---

(١) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ص ٩٨.

(٢) هو : بليدة قديمة على تل بالصعيد بالجانب الغربى من نيل مصر ، قريبة من قوص ، صفى الدين البغدادى : مراصد الاطلاع جـ٣ ، ١٤٦٧.

(٣) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ص ٣١٧.

واختتم الملك المؤيد بهذه الجولة فى صعيد مصر صحبة الملك الناصر آخر زياراته للسلطان الناصر محمد بن قلاوون بالديار المصرية، وآخر لقاءاتهما المتعددة؛ حيث لم تمض سنة وحوالى تسعة شهور من تاريخ هذا اللقاء الأخير، حتى مات الملك المؤيد إسماعيل صاحب حماة.

وفاة الملك المؤيد :

بعد حياة حافلة عاشها الملك المؤيد إسماعيل صاحب حماة، ما بين كفاح وجهاد ، وتعمير واستقرار، وما بين العلم والعلماء من جهة ، والملوك والأمراء من جهة أخرى ، وبعد أن امتلك ناصية السيف والقلم، مات الملك المؤيد إسماعيل ابن الملك الأفضل على ابن الملك المظفر الثانى محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه الأيوبى صاحب حماة، فى الثالث والعشرين من المحرم سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م ولاشك أن الملك الناصر محمد بن قلاوون، كان له دور كبير بعد مشيئة الله تعالى، فيما قضاه الملك المؤيد فى أبهة الملوك والسلاطين فهو الذى جعله صاحب حماة، وملكها وسلطانها، يفعل فيها مايشاء، ليس لأحد معه كلام[١].

وكان الملك المؤيد صاحب حماة ، صاحب سيف وقلم أيضا؛ فكان فى ملكه ملكا جليلا، ذا سياسة وتدبير، ورئاسة وتيسير، وفى علمه كان إماما بارعا مفتنا ، ماهرا فى الفقه، والتفسير، والأصلين، والنحو ، والتاريخ ، وعلم الميقات ، والفلسفة ، والمنطق والطب ، والعروض والأدب ، والنظم والنثر، حتى قيل فيه : " إنه ليس فى الملوك بعد المأمون أفضل منه[٢].

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، جـ٢ ص ٣٩٩.

(٢) ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ ٢ ص ٤٢٢.

وقد ألف الملك المؤيد صاحب حماة فى علم التاريخ كتاب المختصر فى أخبار البشر [١]، وفى علم الفقه نظم الحاوى الصغير [٢] وفى الجغرافيا ، كتاب تقويم البلدان ، وغير ذلك من المصنفات المختلفة [٣] .

وكان الملك المؤيد مع غزير علمه يميل إلى الشعر ميلا زائداً، فمن نظمه فى وصف فرس:

أحسن به طرفا أفوت به القضا	إن رمته فى مطلب أو مهرب
مثل الغزالة مابدت فى مشرق	إلا تبدى نورها فى المغرب [٤]

وله أيضاً فى الغزل :

سرى مسرى الصبا فعجبت منه	من الهجران كيفا صبا إلىّ
وكيف ألم بى من غير وعد	وفارقنى ولم يعطف عليّا [٥]

---

(١) حاجى خليفة : كشف الظنون ، جـ٢ ص ١٦٠٩.

(٢) الحاوى الصغير : كتاب فى فروع الفقه الشافعى للقزوينى المتوفى سنة ٦٦٨هـ،١٢٦٩م ، السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ، جـ٦ ص ٨٤، حاجى خليفة : كشف الظنون ، جـ٦ ص ٦٢٥ ، البغدادى : هدية العارفين جـ١ ، ص ٢١٤.

(٣) عن مؤلفاته انظر ، البغدادى : هدية العارفين جـ١ ص٢١٤ ، محمد رضا كحالة : معجم المؤلفين، جـ٢ ص ٢٨٢ ، ٢٨٣.

(٤) ابن حبيب : تذكرة النبيه ، جـ٢ ص ٢٢٣.

(٥) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، جـ٢ ص ٤٠٥.

ومن شعره أيضا :

اقرأ على طيب الحيـــــا	ة سلام صب ذاب حزنـا
واعلم بذاك أحبـــــــة	بخل الزمان بهم وضنـا
لو كان يشرى قربهـــــم	بالمال والأرواح جدنـــا
متجرع كأس الفـــــــرا	ق يبيت للأشجان رهنـا
حدب قضى وجدا ولـــــم	يقضى له ماقد تمنـــى [١]

ولما كان الملك المؤيد صاحب حماة المحروسة ميالا للشعر - كما رأينا - كان من الطبعى أن يكون محبا للشعراء ، حتى أنه كان يعطيهم العطايا الجزيلة، ويجيز على المدائح بالجوائز السنيـة، ولذلك كان يقصده أرباب الأدب ، وامتدحه كثير من أهل الأدب. ومنهم أديب مصر والشام الشيخ جمال الدين أبو بكر محمد بن نباتة المصرى[٢] . وقد جمع فى مديحه فيه كتابا سماه " منتخب الهدية فى المدائح المؤيدية" [٣] .

ومن بعض قصائده فيه :

سقى الله أكناف الديار هوامعا	تبيت بها الأزهار غر المضاحك
كأن ندى الملك المؤيد جادهـــا	فاسفر نوار الربا عن سبائــك
مليك إلى مغناه يستبق المنـــى	مسابقة الحجاج نحو المناســك

---

(١) الصفدى : الوافى بالوفيات ، جـ٩ ص ١٧٦.

(٢) عن ترجمته أنظر ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ٤ ص ٢١٦ رقم ٥٨٥ .

(٣) البغدادى : هدية العارفين ، جـ٢ ص ١٦٤ ، حاجى خليفة : كشف الظنون ، جـ٢ ص ١٨٥٠.

تولى فيا عجز المهالبة الأولـــى   وجاد فقلنا يا حياء البرامـــك[١]

وقد رثاه ابن نباتة المصرى بقصيدة طويلة مليئة بالحزن والشجن .

ومنها :

ما للندى مايلبى صوت داعيـــه   أظن أن ابن شادى قام ناعيـــه

ما للرجاء قد اشتدت مذاهبـــه   ما للزمان قد اسودت نواحيـــه

مالى أرى الملك قد فضت مواقفه   مالى أرى الوفد قد فاضت مآقيه

نعى المؤيد ناعيه فوا أسفـــا   للغيث كيف غدت عنا غواديـــه

واروعنا لصباح من رزيتـــه   أظن أن صباح الحشر ثانيـــه

واحسرتاه لنظمى فى مدائحـــه   كيف استحال لنظمى فى مراثيه

أبكيه بالدر من دمعى ومن كلمى   والبحر أحسن ما بالدر أبكيـــه

ومنها :

كان المديح له عرش بدولتـــه   فاحسن الله للشعرالعزا فيـــه

يا آل أيوب صبرا إن إرثكـــم   من اسم أيوب صبر كان ينجيـــه

هى المنايا على الأقوام دائـــرة   كل سيأتيه منها دور ساقيـــه[٢]

وقال الشيخ صفى الدين بن سرايا الحلى[٣] راثيا الملك المؤيد إسماعيل

---

(١) ابن حبيب : تذكرة النبيه ، جـ٢ ٢ ص ٢٢٢.

(٢) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ، جـ٢ ص ٤٠٣ ، ٤٠٤.

(٣) هو صفى الدين عبد العزيز بن سرايا بن على الحلى شاعر المشرق المتوفى سنة ٧٥٠هـ/ ٢٣م، ابن حبيب : درة الأسلاك ، ص ٣٧٢، الكتبى : فوات الوفيات جـ٢ ص٣٣٥ رقم ٢٨٦.

بقصيدة طويلة ، منها:

في فقدنا الملك المؤيد شاهـــد | أن لايدوم مع الزمان ســرور
ملك تيمنت الملوك برأيــــه | فكأنه لصلاحهم أكسيــــر
من آل أيوب الذين سماحهم | بحر بأمواج الندا مسجـــور
أضحت مدائحه الحسان مراثيـا | للناس منها رنة وزفيـــــر
وبكت له أهل الثغور وطالمـا | ضحكت لفست الملك منه ثغور

وفي آخرها :

إن لمت صرف الدهر فيه أجابني | أبت النهى أن يعتب المقـدور
أو قلت أين ترى المؤيد قال لي | أين المظفر قبل والمنصــور[1]

---

(١) يقصد بهما الملك المظفر الثالث محمود ، ووالده الملك المنصور الثاني محمد ، ابن حبيب : تذكرة النبيه ، جـ٢ ص ٢٢٤ ، ٢٢٥.

الفصل الخامس

الملك الأفضل

وسقوط مملكة حماة

أولا: تعيين الأفضل ابن المؤيد فى مملكة حماة

لما مات الملك المؤيد إسماعيل صاحب حماة ، أخفى أهله موته، ثم سافرت زوجته أم ولده الأفضل محمد فى سرية تامة إلى دمشق، والتقت هناك بنائبها الأمير الكبير تنكز ، وقدمت له هدية رائعة من الجوهر. وأثر ذلك طلبت منه أن يتوسط لها عند السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ؛ لتعيين ابنها محمد مكان أبيه الملك المؤيد فى مملكة حماة[١].

وكان الأمير تنكز نائب السلطنة بدمشق، من أقرب الناس في هذا الوقت إلى قلب الملك الناصر محمد بن قلاوون . وكان رفيع القدر عنده، مسموع الكلمة، نافذ الرأى لديه ، حتى أنه كان بمثابة ملك على بلاد الشام، وذلك قبل أن يتغير عليه قلب السلطان[٢] .

فقبل الأمير تنكز نائب دمشق الهدية، وسارع بإرسال كتاب إلى السلطان الملك الناصر بالديار المصرية، يبلغه فيه موت الملك المؤيد إسماعيل صاحب حماة ، وألح على السلطان فى تضرع فى إقامة الأمير محمد فى مملكة حماة مكان والده.

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ٢، ص٣٤٤.

(٢) عن ترجمة تنكز انظر ، الشجاعى : تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون وأولاده ، ص ٧١-٨٩، ٩٤ ، ٩٥ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى، جـ٤ ص١٥٦ رقم ٧٩٧.

فتأسف السلطان الملك الناصر على موت الملك المؤيد صاحب حماة، وحزن عليه كثيرا. ولم يلبث أن بعث برده إلى الأمير تنكز بإجابة سؤاله، وتعيين الأمير محمد مكان والده المؤيد ، وانتهز السلطان فرصة زواج ابنه الأمير آنوك[١] من ابنة الأمير بكتمر الساقى[٢]، فطلب من الأمير تنكز تجهيز الأمير محمد ابن الملك المؤيد لحضور احتفالات الزواج، فوصل الأفضل محمد إلى الديار المصرية، فى العاشر من ربيع الآخر سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م[٣].

فلما وصل الأفضل محمد إلى الديار المصرية ، رسم السلطان بتقليده مملكة حماة، على قاعدة والده الملك المؤيد صاحب حماة وأسلافه . ورسم له أن يركب بشعار السلطنة، فركب الملك الأفضل من المدرسة المنصورية بالقاهرة المحروسة بالرقبة، وحملت الغاشية أمامه، وكثرت العصائب السلطانية والخليفية[٤]على رأسه وبين يديه الحجاب وبعض الأمراء والشبابه[٥] . فصعد على هذا النحو إلى القلعة. وكان يوما مشهودا[٦].

---

(١) عن ترجمته انظر ، ابن حبيب : تذكرة النبيه، جـ٢ ص ٣١٧.

(٢) هو بكتمر بن عبد الله الركنى الساقى الناصرى، المتوفى سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، جـ٣ ص ٣٩٠ رقم ٦٧٨.

(٣) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ص ٣٤٤.

(٤) يبدو أن رفع الأعلام الخليفية كان مستحدثا لصاحب مملكة حماة بدليل أننا لم نر رفعها أيام الملك المؤيد وأسلافه.

(٥) نوع من البوقات ينفخ بها فى المواكب ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ٤ ص ٩، عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك، جـ٢ ص ١٠١.

(٦) ابن حبيب : تذكرة النبيه جـ٢ ص ٢٢٥، ابن الوردى : تتمة المختصر جـ٢ ص ٤٢٣، ٤٢٤.

وقد أعطى الملك الناصر محمد بن قلاوون لمحمد بن الملك المؤيد لقب الأفضل كجده الملك الأفضل على بن الملك المنصور محمد. وكان والده الملك المؤيد يلقبه فى حياته بالملك المنصور محمد(١).

وقد تعامل الناصر محمد بن قلاوون مع الملك الأفضل محمد صاحب حماة، كما كان يتعامل مع والده الملك المؤيد فى بداية الأمر بمودة وصداقة؛ وذلك على الرغم من أنه كان ابن عشرين عاما، فى بدء تعيينه ملكا على مملكة حماة المحروسة(٢).

ففى نفس عام تعيين الأفضل محمد ملكا على حماة، استدعاه السلطان محمد بن قلاوون؛ ليصاحبه فى حج هذا العام. فحضر الملك الأفضل إلى الديار المصرية، فى السادس والعشرين من شعبان أى بعد حوالى أربعة شهور من تقلده ملك حماة . وخرج منها مصاحبا للسلطان إلى الأراضى المقدسة بالحجاز، ثم عاد فى صحبته بعد أداء مناسك الحج إلى الديار المصرية. ومنها سافر إلى بلاده فى الثالث والعشرين من محرم سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٢م؛ وذلك بعد أن قضى فى صحبة السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالديار المصرية والحجازية زهاء خمسة أشهر(٣).

ثم حضر الملك الأفضل صاحب حماة إلى الديار المصرية فى ذى الحجة من عام ٧٣٤هـ ، مرورا بنيابة السلطنة بدمشق. وقد صاحبه فى رحلتـــه

---

(١) الصفدى : الوافى بالوفيات ، جـ٢ ص ٢٢٥.

(٢) ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ٢ ص ٤٢٣.

(٣) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ص ٣٥١ ، ٣٥٣.

الأمير حسام الدين مهنا بن عيسى بن مهنا أمير عرب الشام ، الذى عاد إلى حماة تائبا بعد أن هرب مدة طويلة فى البلاد المغولية بفارس ، مغاضبا للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون(١).

ويبدو أن الأمير مهنا قد التجأ عند عودته إلى الملك الأفضل صاحب حماة ليتوسط له عند السلطان. فأخذه الملك الأفضل وسافر به أولا إلى دمشق ملاقات الأمير تنكز كبير أمراء البلاد الشامية ؛ ليتوسط بدوره للأمير حسام الدين مهنا عند السلطان، ثم أتى به الملك الأفضل إلى الديار المصرية، ومثل به بين يدى السلطان. فما كان من الملك الناصر إلا أن أقبل عليه، وأكرمه ، بل وزاد فى إكرامه، ونسى له جرائره السابقة(٢).

ومن الواضح أن الملك الأفضل صاحب حماة قد نجح فى مهمته التى سعى لها فى وساطته للأمير الكبير حسام الدين مهنا بما لديه عند السلطان من ود ومحبة. ورد بذلك دينا ظل طويلا على عاتق والده الملك المؤيد إسماعيل صاحب حماة ، فقد كان لوساطة الأمير الكبير مهنا بن عيسى أمير عرب الشام، وسعيه للملك الناصر فى سنة ٧١٠هـ دورهما الكبير فى تقلد الملك المؤيد إسماعيل ملك حماة ، وإعادة ملك بنى المظفر عمر بن شاهنشاه الأيوبى بها بعد غيبة عنها(٣).

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ٤ ص ٣٦٧ رقم ١٠٠٤.

(٢) ابن حبيب : تذكرة النبيه ، جـ٢ ص ٤٨ ، ابن الوردى : تتمة المختصر جـ٢ ص ٤٣٦.

(٣) انظر ماسبق ص ٩٥، ٩٧.

فلما انتهى الملك الأفضل صاحب حماة من مهمته الرسمية لحضوره إلى الديار المصرية، وعاد الأمير مهنا إلى بلاد الشام، بقى هو فى صحبة السلطان الناصر محمد بن قلاوون، حيث استبقاه الأخير للخروج معه فى رحلة صيد طويلة ، امتدت من شهر محرم ، وحتى منتصف شهر ربيع الآخر من سنة ٧٣٥هـ/١٣٣٤م ، ثم فى اليوم التالى لعودتهما من رحلة الصيد، سافر الملك الأفضل صاحب حماة، عائدا إلى بلاده، وذلك بعد أن خلع عليه السلطان خلعة السفر، وبعد أن سعد بصحبة الملك الناصر وقتا يقارب الأربعة شهور[١].

ثم حضر الملك الأفضل صاحب حماة إلى الديار المصرية، فى أول ذى الحجة من سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م ، وقد احتفل السلطان الملك الناصر بقدوم صاحب حماة احتفالا كبيرا، حتى أن الحفاوة به زادت عن العادة، مقارنة بالزيارات السابقة ، مما يؤكد على تطور العلاقة بين كل من الملك الأفضل صاحب حماة، والسلطان محمد بن قلاوون نحو الأفضل[٢].

وقد عاد الملك الأفضل صاحب حماة إلى بلاده فى الثامن عشر من شهر ربيع الأول من سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م، وذلك بعد أن قضى فى صحبة الناصر بالديار المصرية أكثر من ثلاثة شهور . ويبدو أن الملك الأفضل قد قضى هذه المدة في رحلة صيد مع السلطان[٣].

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ص ٣٧٩.

(٢) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ص ٤٠٣.

(٣) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ص ٤١٠.

وهكذا كان يقضى الملك الأفضل صاحب حماة بالديار المصرية فى صحبة الناصر محمد بن قلاوون ، مابين خمسة شهور إلى ثلاثة. وإن دل ذلك على شيئ فانما يدل على مدى القرب والألفة بين كل من الناصر والأفضل.

ولكن يبدو أن شهر العسل قد انقطع بينهما بعد آخر زيارات الملك الأفضل للقاهرة، والتى انتهت فى الثامن عشر من ربيع الأول سنة ٧٣٧هـ. حيث استدعى الأفضل من قبل الناصر محمد بن قلاوون فى أوائل سنة ٧٣٩هـ/١٣٣٨م، للتحقيق معه فى كثرة الشكاوى التى وردت إلى السلطان من أهل مملكة حماة بسبب شغفه باللهو، وأخذه أموال الرعية، ولولا أن شفاعة الأمير تنكز نائب السلطنة بدمشق قد سبقته إلى الملك الناصر، وخففت من غضب السلطان لكان هناك أمر آخر .

فلما حضر الملك الأفضل صاحب حماة إلى الديار المصرية ، سارع بتقديم تقادم جليلة للسلطان، وهدايا عظيمة لكبار الأمراء، حتى يكونوا عونا له عند السلطان. فكان أن رضى عنه الملك الناصر، ولكن بعد أن جمع حوله القضاة ، ليكونوا شهودا عليه، وعدد ذنوب الملك الأفضل بحضرتهم . ثم وصاه بالسلوك السليم فى قيادة مملكته، وأكد له بأنه مارضى عنه إلا لشفاعة الأمير تنكز نائب الشام. وأخيرا خلع عليه، وأمره بالعودة إلى بلاده[1].

ومن الواضح أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون، قد تغير من الملك الأفضل صاحب حماة منذئذ، فلم يتلاقا بعدها أبدا حتى مات السلطان الملك الناصر فى التاسع عشر من ذى الحجة سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م[2].

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ص ٤٥٨.

(٢) عن ترجمة الناصر محمد بن قلاوون انظر، الشجاعى : تاريخ الملك الناصر ص ١٠١- ١١١ ، ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ، جـ٢ ص ٥٢١ رقم ٤٤٨.

والحق أن سيرة الملك الأفضل صاحب حماة قد تغيرت ، فبعد أن كان زاهدا عابدا، إلى درجة تمسكه بالجلوس على الصوف، وامتناعه عن سماع الشعر ، ترك كل ذلك ، فجلس على الحرير ، وسمع الشعر ، وأسرف في أمواله ، وزاد في البذخ والترف ، وتداين لذلك ، حتى بلغت ديونه مافوق ألفي ألف درهم(١).

ومن ذلك أنه صاحب الأمير الكبير تنكز نائب السلطنة بحماة، في رحلة صيد إلى البلاد الحلبية في شعبان من سنة ٧٣٩هـ وخرج معهما الحريم والحظايا، والحشم والحمام ، حتى ألحقا بالفلاحين والرعية كلفة بليغة، وضررا كبيرا(٢).

ولم يقف الملك الأفضل عند هذا الحد من الإسراف والبذخ بل ازداد شططه ، وتجاوز الحد ، حتى أنه وضع التاج ابن العز طاهر بن قرناص أحد كبار رجالات حماة بين حائطين حتى مات، وزاد على ذلك بقطع أشجار بستانه(٣).

وكان الأمير تنكز في ذلك كله يحنو على الملك الأفضل ، ويحميه ، ويدافع عنه، ويناصره، حتى قبض عليه من قبل الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧٤٠هـ/١٣٣٩م؛ لأمور يطول شرحها هنا(٤). فلما فقد الملك الأفضل

---

(١) الصفدي : الوافي بالوفيات ، جـ٢ ص ٢٢٥.

(٢) ابن الوردي: تتمة المختصر ، جـ٢ ص ٤٦١.

(٣) أبو الفدا : المختصر (الزيل) جـ٤ ص ١٣٦.

(٤) انظر ، الشجاعي : تاريخ الملك الناصر وأولاده ص ٧١-٨٩ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ١ ص ٥٢٠ رقم ١٤٢٤.

بالقبض على الأمير تنكز حاميه وناصره ، تعب بعده ، ولزمته مغارم، وكثرت الشكاوى عليه ، وقل ناصره، فتضعضعت أحواله ، واختلت أموره ، وذلك على حد قول صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى[(١)].

ثانيا: سقوط مملكة حماة:

توفى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فى الحادى والعشرين من ذى الحجة سنة ٧٤١هـ / ١٣٤٠م. وكان وفاته إيذانا بنهاية مملكة حماة ، ونهاية أسرة الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبى؛ إذ لم يبق الملك الأفضل صاحب حماة فى ملكه ، وملك أسلافه من البيت التقوى ، بعد وفاة الملك الناصر محمد بن قلاوون أكثر من ثلاثة شهور، حيث عزل الملك الأفضل من ملكه بمملكة حماة فى يوم السبت السابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م[(٢)].

ومن غرائب الأقدار أن يلى حكم نيابة السلطنة بحماة بعد أن تحولت إلى نيابة، مملوك الملك المؤيد إسماعيل صاحب حماة الأمير طقز دمر؛ الذى كان قد أهداه الملك المؤيد إسماعيل للملك الناصر محمد بن قلاوون ، فى سنة ٧٠٩هـ ، وذلك قبل أن يلى مملكة حماة[(٣)] ، وكان الأمير طقز دمر قبيل انتقاله فى نيابة حماة نائبا للسلطنة بالديار المصرية[(٤)].

---

(١) الصفدى : الوافى بالوفيات جـ٢ ص ٢٢٥.

(٢) ابن حبيب : تذكرة النبيه ، جـ٣ ص ٢٨، المقريزى : السلوك ، جـ٢ ص ٥٧٣.

(٣) أبو الفدا : المختصر ، جـ ٤ ص ٥٧ ، ١٣٦.

(٤) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ص ٥٥١.

الأسباب الحقيقية لعزل الأفضل:

قلنا سابقا أن أحوال الملك الأفضل صاحب حماة قد تدهورت ولزمته المغارم ، وكثرت الشكايات فيه ، حتى أن الملك الناصر محمد بن قلاوون قد استدعاه، وأحرجه أمام القضاة، وعدد ذنوبه بحضرتهم - كما رأينا- ومع ذلك أعاده إلى مملكته، بعد أن أوصاه بكثير من الوصايا، بل وخلع عليه كالعادة عند سفره.

وكان فى استطاعة الناصر محمد بن قلاوون أن يعزل الملك الأفضل ، لما بدر منه فى حق نفسه، وحق رعاياه، ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك؛ حفاظا لما كان بينهما من مودة وصداقة ، ورعاية لوساطة الأمير تنكز نائب السلطنة بدمشق، وعناية برأيه.

ومن الواضح أن تدهور أحوال الملك الأفضل ، وسوء سلوكه، وشكاوى الناس فيه ، لم يكن السبب الحقيقى فى عزله؛ بدليل أن الناصر محمد بن قلاوون لم يعزله، وذلك على الرغم من استقدامه له من مملكته، وتوبيخه إياه أمام القضاة.

إذن ... فما هو السبب الحقيقى الذى كان وراء عزل الملك الأفضل من ملكه؟

قبل أن نجيب على هذا السؤال، لابد لنا أن نستعرض معا أمرا هاما، له دلالته الواضحة فى شأن عزل الملك الأفضل صاحب حماة، وهذا الأمر الهام الذى نود استعراضه هو : تدهور أحوال الحكم فى مصر عقب وفاة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون.

والحق أن مصر التى عاشت زهاء اثنتين وثلاثين سنة ، فى استقرار وهدوء تام تحت ظل أعظم ملوك دولة سلاطين المماليك قاطبة، قد تدهورت

أحوال الحكم بها، بصورة خطيرة وفجائية، عقب وفاة الملك الناصر مباشرة، بل وربما ظهرت بوادرها فى الأيام الأخيرة من مرض السلطان.

وحدث ذلك على الرغم مما كان يظن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون من تثبيت لقواعد الحكم لابنه السلطان الملك أبى بكر، الذى تولى السلطنة، فى يوم الخميس الحادى والعشرين من ذى الحجة سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م[١]. بتعيينه وليا للعهد، وإعداده من قبل؛ ليكون مؤهلا لتحمل مسئولية السلطنة، وبتوصية كبار مماليكه، وأقربهم إلى قلبه بابنه السلطان أبى بكر، وحلفهم أمامه ، وذلك بخلاف تربيطاته السابقة بتزويج أبنائه من بنات كبار مماليكه الأمراء ، وتزويج بناته لهم[٢].

نقول على الرغم من كل مافعله الناصر محمد بن قلاوون، من أجل حكم مستقر لولده أبى بكر، فإن الذى حدث كان مغايرا تماما لما أراده الملك الناصر، فلا الابن السلطان كان مشابها لأبيه السلطان، فلم يقدر مسئولية السلطنة حق قدرها ، فسار مسارا مغايرا لوالده، ولا الأمراء الكبار راعوا أماناتهم وعهدهم وقسمهم، فحركتهم المطامع والجشع ، وسال لعابهم لهذه التركة العظيمة ، صحيح أنهم قد تمسكوا بالاحتفاظ لأبناء الناصر محمد بن قلاوون بكرسى والدهم، سواء أرضى البعض منهم عن ذلك أم أبوا؛ ولكنهم بعيدا عن الكرس الذى رغبوا فيه، ورهبوه فى نفس الوقت ، فعلوا مايريدون فى أبناء الناصر من عزل ، وخلع ، وقتل[٣].

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ١٠ ص ٣ -١٧.

(٢) عبد الرحمن أمين : الدولة المملوكية فى مصر أيام سلالة الناصر محمد بن قلاوون (رسالة دكتوراه) ص ١١-٣٠.

(٣) عبد الرحمن أمين : المصدر السابق ، ص ٤٨، ٥٣، ٨٣-٨٥.

فلم يكد يمر شهر وتسعة وعشرون يوما، من تولى أبى بكر السلطنة حتى تم عزله. ثم أتى الأمراء بطفل لم يتجاوز الثامنة من عمره، وهو الملك الأشرف كجك بن محمد بن قلاوون[1]، وأجلسوه على كرسى السلطنة ولم يستمر أيضا أكثر من خمسة شهور وعشرة أيام فى السلطنة حتى عزل عنها فى نفس العام؛ ليتولاه الملك الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون[2].

وفى هذا السلطان الطفل يقول الأديب زين الدين عمر بن الوردى، موضحا فى إيجاز بليغ أحوال مصر فى هذه الآونة :

سلطاننا اليوم طفل والأكابر فى ... خلف وبينهم الشيطان قد نزغـا

وكيف يطمع من مسته مظلمـة ... أن يبلغ السؤل والسلطان مابلغـا[3]

ثم فى أروع إيجاز بليغ يقول زين الدين عمر بن الوردى مشرحا أحوال عام سنة ٧٤٢هـ :

عجائب عامنا عظمت وجلـت ... أعام كان أم مائتين عامـا

تصول على الملوك صيال قاض ... قليل الدين فى مال اليتامـى[4]

فى هذه الأحوال الشديدة الاضطراب، والمليئة بأحقاد مماليك الناصر الكبار، وأطماعهم فى السلطة، عقب وفاة الناصر محمد بن قلاوون. وفى

---

(١) عن ترجمته انظر، ابن حبيب : تذكرة النبيه، جـ٣ ص ٢٦، ٨٧.

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، جـ١٠ ص ٢١-٧٠.

(٣) ابن الوردى : تتمة المختصر، جـ٢ ص ٤٧١.

(٤) ابن الوردى : تتمة المختصر، جـ٢ ص ٤٧٤.

فترة حكم هذا السلطان الطفل، صدر قرار خطير فى بساطة متناهية ، وكان قرار عزل الملك الأفضل صاحب حماة من ملكه، وملك آبائه وأسلافه، وإسقاط مملكة ظلت قائمة مائة وستة وأربعين عاما ، لتصبح حماة نيابة كغيرها من نيابات البلاد الشامية. وقرار العزل واضح للعيان من أنه من تدبير الأمراء، إذلم يكن للسلطان الصغير كجك فيه ناقة ولا جمل ، والمهم أنه صدر دونما رعاية لحقوق أو موجبات، وذلك كان ديدنهم فى هذه الفترة القلقة من عمر دولة سلاطين المماليك فى مصر، وما كان ينتظر من هؤلاء الأمراء من مماليك الناصر وتربيته؛ الذين لم يراعوا حق أستاذهم الناصر محمد بن قلاوون عليهم ، فى نصيحة أولاده ورعايتهم لهم، والذين لم يراعوا عهودهم ولا أماناتهم، أن يراعوا حقوق ملك لا حول له ولاقوة كالملك الأفضل صاحب حماة.

بعد هذا الاستعراض الموجز لأحوال دولة سلاطين المماليك فى مصر، عقب وفاة الناصر محمد بن قلاوون، واضطراب أحوال الحكم من بعده، لخلافات مماليكه وغلمانه وخواصه ، وصولا للسلطة والسيطرة فى الديار المصرية والشامية.

وإذا عدنا إلى الوراء القهقرى حتى عقب وفاة الملك المظفر محمود بن الملك المنصور محمد صاحب حماة فى سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م، وراجعنا أحوال دولة سلاطين المماليك فى مصر فى تلك الفترة ، لوجدناها تنطبق تقريبا للأيام التى أعقبت وفاة الناصر محمد بن قلاوون[١].

(١) انظر ماسبق ص ٧٧، ٧٨.

فإذا تبين لنا أنه فى كلا الفترتين، تم القضاء على مملكة حماة، مع فارق بسيط فى أن الأمراء السابقين ، كانوا أرفق حالا بأصحاب حماة من أمراء مابعد وفاة الناصر، حيث أبقوا على مملكة حماة حتى موت صاحبها الملك المظفر محمود، بينما سارع الآخرون بعزل الملك الأفضل من ملكه؛ ليموت حسرة على فقد ملكه. تأكد لدينا ماقلناه فى أن وفاة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، كان السبب الوحيد فى القضاء على مملكة حماة، وإنهاء أسرة المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبى من الملك.

وبالتالى فإن هذا يؤكد نظريتنا السابقة فى أن ملوك حماة ظلوا ملوكا فى كنف أقوى الملوك فى عصر دولة سلاطين المماليك، بينما استبعدوا عن الملك فى عصر الملوك الصغار أو الضعاف؛ ذلك لأنهم هم أنفسهم كانوا شبه أسرى يرسفون فى قيودهم المصطنعة أمام تسلط كبار الأمراء . وكان من المستحيل لهؤلاء الأمراء الطامعين أن يبقوا على ملك، وهم مازالوا فى عداد الأمراء ، وفى يدهم فى نفس الوقت عزله والخلاص منه.

وهكذا انتهت مملكة حماة، وفقدت بالتالى عزها ومجدها، وخاصيتها الفريدة، وانفرادها بالملك دون غيرها من ممالك بلاد الشام، لتترك فى إثرها مأساة دامية للملك الأفضل صاحب حماة وأسرته.

مابعد العزل:

لما عزل الملك الأفضل محمد صاحب حماة من ملكه ، أعطيت له إمرة مائة، مقدم ألف[1] بدمشق ، ويكون بها رأس الميسرة ، ويكون

(١) هو أعلى رتبة عسكرية فى العصر المملوكى، ويكون تحت قيادته ألف جندى وفى خدمته مائة مملوك ، القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٤ ص١٤.

راتبه ألف ألف ومائتا ألف درهم، فى كل سنة من دخل حماة. فسار إلى دمشق منفيا من بلده حماة للاستقرار بها، ولكنه لم يتحمل هذا الخطب الجلل الذى نزل عليه كالصاعقة، ولا إلى ما أصبح عليه حاله ، من ملك يشار إليه بالبنان إلى أحد قيادات العسكر بدمشق. فلم يكد يستقر بها فى أوائل شهر ربيع الآخر سنة ٧٤٢هـ ، حتى مرض بداء القولنج[١] ثم أعقبه داء الصرع[٢].

ولم يكن الملك الأفضل هو الوحيد الذى تأثر بما نزل عليه من خطب، إذ أن زوجته أيضا مرضت من هول هذا الخطب حتى أشرفت علي الموت، فجزع عليها الملك الأفضل جزعا شديدا، وسارع بصنع تابوت؛ ليضعها فيه إذا توفيت ، ويحملها إلى حماة لدفنها هناك.

ولكن ولأن الأعمار بيد الله سبحانه وتعالى مات الملك الأفضل قبل زوجته؛ وذلك فى ليلة الثلاثاء الحادى عشر من شهر ربيع الآخر من نفس العام، أى أنه لم يمكث على وجه الأرض بعد عزله ووصوله إلى دمشق أحد عشر يوما. فوضعته والدته فى نفس التابوت الذى صنع خصيصا لزوجته، وحمل إلى حماة، ودفن بها. وكان الملك الأفضل حينئذ فى الثلاثين من عمره؛ حيث ولد سنة ٧١٢هـ وتوفى فى سنة ٧٤٢هـ/١٣٤١م[٣].

---

(١) القولنج : مرض معوى مؤلم، المعجم الوجيز (اصدار مجمع اللغة العربية) ص ٥٢١.

(٢) الصفدى : الوافى بالوفيات ، جـ٢ ص ٢٢٤.

(٣) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ص ٧٠.

ثم أن زوجة الملك الأفضل لم تتحمل هذه الصدمة الجديدة، مع ما كان بها من مرض ، فماتت فى عشية نفس اليوم؛ لتلحق بزوجها في مثواه الأخير[١].

وعندما اقترب تابوت الملك الأفضل من حماة ، خرج نائبها الأمير طقزدمر للقاء التابوت ، وحزن على الأفضل كثيرا ، وحلف بأنه ماتولى نيابة حماه إلا رجاء أن يردها إلى الأفضل؛ وذلك مكافأة له لحسنات والده الملك المؤيد إسماعيل وأفضاله عليه . وكان الناس وبعض الأمراء قد وجهوا إليه عتابا مرا، لقبوله نيابة حماة ، وفيها ابن استاذه الملك المؤيد إسماعيل[٢].

ولم تتوقف مأساة أسرة الملك الأفضل عند هذا الحد إذ أنه بعد موت الملك الأفضل وزوجته ، توجه ابنيه صحبة جدتهما إلى الديار المصرية، فأكرموا نزلها ، وأعطوا ابنه الكبير إمرة طبلخاناة وتحت إمرته سبعون فارسا. ولكنه مات فى مصر قبل خروجهم ، فسبحان من يقرب الآجال ، ويقطع الآمال على حد قول الشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى[٣].

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ٣ ص ٣٨٨ ترجمة الملك الأفضل رقم ١٠٢٧.

(٢) ابن الوردي : تتمة المختصر ، جـ٢ ص ٤٧٣ ، المحبى: تشقيف التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٤٠ ، ٤١ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ٢ ص ٢٢٥، رقم ٢٠٤٢.

(٣) الصفدى : الوافى بالوفيات جـ٢ ص ٢٢٥.

والى هذا يشير ابن نباته شاعر الملك المؤيد قائلا :

تغرب عن مغنى حماة مليكهـا	وأودى بها من بعد ذاك مماته
ومامات حتى مات بعض نسائه	بهم وكادت أن تموت حماتــه[١]

ويقـول الأديب صـفي الدين عـبـد العـزيز بن سـرايا الحلى مـادحـا فى الملك الأفضل:

سقى حمى وادى حماة الحيـا	وصيب الودق وهتانـــه
وحبذا العاصى وياحبـــذا	دهشته الغرا وميدانـــه
واد إذا مر نسيم بـــه	تعطرت بالمسك أردانـــه
كم ليلة قضيتها فى مرجـه	وقد طمت بالماء غدرانـه
والأفق حال بنجوم الدجـى	قد كللت بالدر تيجانـــه
كأنما الجوزاء فيه وقـــد	جف بها البدر وكيوانـــه
بيت بنى أيوب إذ شيـــدت	بالملك الأفضل أركانـــه
بيت أثيل بحره وافـــر	قد سلمت فى المجد أوزانه
تهز بالملك الذى لم تكـــن	تلقى إلى غيرك أرسانـــه
هذا كتاب ناطق بالعـــلا	وهذه الرتبة عنوانـــه[٢]

ويقول فيه أيضا الأديب شمس الدين محمد الغزى [٣].

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٣ ص ٣٨٩.

(٢) ابن حبيب : تذكرة النبيه جـ٣ ص ٢٩.

(٣) هو الأديب محمد بن على بن محمد المصرى ثم الغزى ، ويعرف بابن أبى طرطور، وسكن دمشق ثم حماة، وتوفى بها سنة ٧٦١هـ وقيل ٧٦٢هـ، ابن حبيب : تذكرة النبيه جـ٣ ، ص ٢٤٦، ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ٤ ص ٨٨ رقم ٢٤٤.

في خدمة السلطان أيامي التي قضيتها بجميع عمري تحسب

مامر يوم طيب في ظلـــــه إلا وثانيه ألذ وأطيـــــب[١]

أما عن حماة فإنها أيضا لم تنج كصاحبها الملك الأفضل وأسرته ، من ويلات هذا التغيير وخطبه. ويكفي أنها قد فقدت استقرارها وهدوءها وتميزها ، التي تمتعت بها طوال حكم أسرة بني المظفر الأيوبية، وانفرادها بها عن باقي قريناتها من البلاد الشامية. وأقرب مثل يوضح ماقلت تلك السنة التي عزل فيها الملك الأفضل. إذ أن حماة ورد عليها فيها فقط أربعة نواب.

يقول ابن الوردي في هذا الشأن بحسرة وألم شديد: " ونقل طقز دمر من حماة إلى حلب ، مكان أيدغمش [٢] ، وتولى نيابة حماة مكانه الأمير العالم علم الدين الجاولي[٣]، ثم نقل الجاولي إلى نيابة غزة،وولي نيابة حماة مكانة آل ملك [٤]، ثم بعده ألطنبغا الماردينى[٥]. كل هذا في مدة

---

(١) ابن حبيب : تذكرة النبيه، جـ٣ ص ٢٩.

(٢) سبق ترجمة المذكور ،ص ١٠٩.

(٣) هو الأمير علم الدين سنجر الجاولي ، كان أحد أمراء المشورة، توفي سنة ٧٤٥هـ، ابن حبيب : درة الأسلاك ، ص ٣٤٣.

(٤) هو الأمير سيف الدين آل ملك بن عبد الله المتوفى سنة ٧٤٧هـ ، ابن تغرى بردى: المنهل الصافي جـ٣ ص ٨٥ رقم ٥٤٧.

(٥) هو ألطنبغا الماردينى الساقي كان أحد الأمراء متقدمين عند الناصر وزوجه ابنته، وتوفي سنة ٧٤٤هـ ، ابن حجر : الدرر الكامنة جـ١ ص ٤٠٩ ، رقم ١٠٥٧.

يسيرة ، وجرى فى هذه السنة من تقلبات الملوك والنواب، واضطرابهم ، مالم يجر فى مئات من السنين" [١].

وهكذا أصبحت حماة كمثيلاتها من النيابات الشامية، تعصف بها التقلبات والانقلابات، وجرت عليها ماكان يجرى من أحداث وخطوب على غيرها من مدن الشام.

* * * * *

(١) ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ٢ ص ٤٧٤.

الفصل السادس

الحروب وأثرها فى العلاقات
بين ملوك حماة وسلاطين المماليك

فى أوقات الشدة يتجمع الناس بعضهم إلى بعض ، ويشتد الرباط بينهم ويقوى ، فتكون العلاقات بين الناس عندئذ ، وخاصة بين الدول وحكوماتها فى أوجها وعظمتها. ومن أعظم الشدائد الحرب، بما فيها من مفاجآتها، وقسوتها، وضرام نيرانها. وعندها تظهر معادن الناس من حكام وقادة وجنود.

ولقد ظهرت معادن ملوك بنى المظفر فى مملكة حماة وجنودها بأجل معانيها، وبان بأسهم فى كثير من ميادين الحرب، سواء أكان ذلك فى العصر الأيوبى أم فى العصر المملوكى - والذى يهمنا أمره بالدرجة الأولى - مما كان لها أبلغ الأثر فى تقوية العلاقات بين ملوك حماة ، وسلاطين المماليك فى مصر ، وذلك من خلال هذا الميدان الجليل.

ولم تأت قوة العسكر الحموى وبأسه فى ميادين القتال من فراغ ، إذ أنه كان لجنودها خبرة واسعة قديمة فى ميادين الحرب تخطيطا، وقتالا أيضا. ولاشك أنها كانت بفضل ملوكها من بنى المظفر المحنكين فى قيادة الجيوش، والتخطيط الحربى ، وتحصين القلاع[1].

---

(١) أبو الفدا : المختصر ، جـ٣ ص ٧٤ ، ستانلى لينبول : سيرة القاهرة ص ١٧٧.

وتمتد خبرة عسكر حماة القتالية، وحنكتهم فى ميادين الحرب، إلى الجد الأكبر لملوكهم الملك المظفر الأول تقى الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبى . فقد كان المظفر عمر أحد كبار القادة البارزين ، فى عصر عمه السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى، وكبير البيت الأيوبى(١) .

ومن هنا كان الجيش الحموى ، وقادتهم من ملوك حماة، منذ عهد الملك المظفر الأول عمر أول ملوكها، وحتى عهد الملك المظفر الثانى محمود ابن محمد بن عمر قادة الجناح الأيمن للجيوش الأيوبية الظافرة(٢) .

ثم لما جاء عصر سلاطين المماليك فى مصر والشام ، احتفظ العسكر الحموى الباسل وملوكها بقيادة الجبهة اليمنى للجيوش المملوكية أيضا ، في معاركها الحربية، حيث كانت لهم من خلالها صولات وجولات ، وانتصارات متعددة(٣).

وكان السلطان الملك المنصور قلاوون يتفاءل بمشاركة عسكر حماة ، بقيادة ملوكها من بنى المظفر . ويؤكد ذلك قوله للملك المظفر الثالث محمود بن محمد بن محمود، عندما حضر لزيارته وخدمته بدمشق فى سنة ٦٨٤هـ /١٢٨٥م. وكان السلطان قلاوون يستعد وقتها لفتح حصن المرقب(٤)، الذى كان يحتله طائفة الاسبتار(٥) الصليبية : " أنت ولدى ، وأعز على

---

(١) ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ٢ ص ١٣٦ ، ١٤٦ ، ١٥٠.

(٢) أبو الفدا : المختصر ، جـ٣ ص ١٢٤.

(٣) ابن حبيب تذكرة النبيه ، جـ١ ص ٦٢ ، ٦٣.

(٤) سبق التعريف بحصن المرقب ، انظر ص ٥٨.

(٥) سبق التعريف بهذه الطائفة ، انظر ماسبق ص ٥٨.

من الملك الصالح عندى ، فتوجه إلى بلدك وتأهب لهذه الغزاة المباركة، فأنت من بيت مبارك ماحضر تم فى مكان إلا وكان النصر معكم "[١].

ولقد شارك ملوك حماة بجنودهم فى كثير من ميادين الحرب المختلفة،التى خاضتها دولة سلاطين المماليك ، منذ بداية قيامها ، وقد تمثلت هذه الحروب فى حروب خارجية، وغالب أمرها كانت ضد المغول، وبقايا الصليبيين فى بلاد الشام، وكذا بلاد الأرمن . وفى حروب داخليةالتى دارت بين سلاطين المماليك والخارجين عليهم من نواب البلاد الشامية.

اولا : المشاركة فى الحروب المغولية (التتارية)[٢] :

كانت أولى ميادين القتال التى شارك فيها ملوك حماة بجنودهم، جنبا إلى جنب مع جنوب دولة سلاطين المماليك الحروب المغولية المملوكية.

وكانت معركة عين جالوت العظيمة التى دحر فيها الجيوش الإسلامية بقيادة السلطان المملوكى قطز الجيش المغولى فى ٦٥٨هـ/ ١٢٩٥م، أول

---

(١) ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ٢ ص ٣٣٢.

(٢) على الرغم من أن المغول والتتار قبائل تركية مختلفة ، إلا أنه لما سيطر جنكيز خان المغولى على القبائل التترية التى كانت لها شوكة كبيرة ، تغلب اسم التتار على الطائفتين فى بداية الأمر ، ثم أطلق الأسمين وأريد بهما جميع الطوائف التركية، عبد السلام عبد العزيز فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى إيران ، ص ٩-١٧ .

معركة اشترك فيها العسكر الحموى بقيادة الملك المنصور محمد بن محمود بن محمد بن عمر الأيوبى، جنبا إلى جنب مع الجيش المملوكى[١].

وفى يوم الجمعة الخامس من محرم سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م خاض الملك المنصور محمد صاحب حماة معركة حامية الوطيس ضد التتار ، مشاركا للملك الأشرف موسى صاحب حمص. وكان التتار قد اجتمعوا فى ستة آلاف نفر عند الرستن[٢] بين حماة وحمص ، فبرز إليهم الملكان الأشرف والمنصور فى ألف وأربعمائة فارس، كما تعاون معهما أمير العرب زامل بن على[٣] فى عدد من العربان ، وقد استطاع هذا الجيش الصغير من هزيمة المغول المغيرين ، حتى أفنوهم قتلا وأسرا[٤].

وهذه المعركة، وإن لم تكن هناك مشاركة فعلية لجيش سلاطين المماليك فى مصر للعسكر الحموى والحمصى ، إلا أن الآخرين قد دخلا هذه المعركة، وهما تحت ظل الدولة المملوكية لأول مرة ، ومن هنا كان إرسال الأشرف والمنصور البشارة بانتصارهما للملك الظاهر بيبرس البندقدارى[٥].

كذلك شارك الملك المنصور العسكر المملوكى فى سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م فى خروجه إلى التتار. ولكن هرب التتار بمجرد رؤيتهم لهذا

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ، جـ٣ ص ٢٢٠ ، ٢٢١.

(٢) سبق لنا تحديد موقع الرستن ، انظر ص ١١.

(٣) كان المذكور أحد المنازئين للأمير عيسى بن مهنا ، المقريزى : السلوك جـ١ ص٥٣٥.

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ٢٣٠ ، المقريزى : السلوك جـ١ ص ٥٣٥.

(٥) المقريزى : السلوك ، جـ١ ص ٤٤٢.

العسكر عند البيرة[1]، وذلك بعد أن تخلصوا عند فرارهم برمى مجانيقهم وتغريق مراكبهم بنهر الفرات . وسارع صاحب حماة عندئذ بإرسال كتاب بالبريد إلى الظاهر بيبرس فى الديار المصرية بهذا المعنى ، ولقد قرئ الكتاب لأهميته على الملك الظاهر وهو بالحمام. فكلف السلطان صاحب حماة، ومن معه بالاقامة فى البيرة ، وإخلاء خندقها من الأحجار التى ألقى بها العدو لردمه ؛ ليسهل لهم الوصول إلى أسوار القلعة[2].

ولم يكن مشاركة مملكة حماة بعساكرها المحنكين فى المعارك الحربية لمجرد أداء الواجب ، بل كان لعسكرها دور فعال ومؤثر، ولها واجب رئيسى مقرر ، كما اتضح ذلك فى معركة حمص الحاسمة. التى التقى فيها الجيوش الإسلامية بقيادة السلطان قلاوون، وجحافل التتار فى ثمانين ألف بقيادة منكوتمر أخى أبغا بن هولاكو إيلخان مغول إيران[3] ، وذلك فى يوم الخميس الرابع عشر من رجب سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م[4].

---

(١) البيرة : فى عدة مواضع ، وأشهرها هذه والواقعة علي شط الفرات من بلاد الجزيرة، وهى بلدة عظيمة لها رستاق وقرى ، صفى الدين البغدادى : مراصد الاطلاع جـ١ ص ٢٤٠، ٢٤١.

(٢) العينى : عقد الجمان جـ١ ص ٣٩٦ ، المقريزى : السلوك جـ١ ص ٥٢٤.

(٣) أطلق على حكام إيران من المغول الايلخانيين، ومفرده إيلخان بمعنى الملك التابع ، وذلك لأن حكام ايران كانوا يتبعون القاآن الأعظم فى الدولة المغولية الكبرى . وكان أبغا ، وأو آباقا بن هولاكو قد تولى الحكم فى إيران بين سنتى ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م و ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م ، البداية والنهاية ، جـ١٣ ص ٢٩٧ ، أحمد السعيد : تاريخ الدول الإسلامية جـ٢ ص ٤٨٠ -٤٨٣.

(٤) المقريزى : السلوك ، جـ١ ص ٦٩١-٦٩٨.

وكان من واجبات الملك المنصور محمد صاحب حماة فى هذه المعركة الهامة، قيادة الجبهة اليمنى للجيوش الإسلامية ، وقد كان لهذه الجبهة والقلب أعظم الأثر فى هزيمة المغول وفرارهم وجرح قائدهم وذلك بالرغم من كثرتهم العددية، بينما كانت الجبهة اليسرى قد انهزمت فى بداية المعركة[١].

وهكذا كان للملك المنصور محمد صاحب حماة وجنوده الحمويين، أكبر الأثر فى انتصار سلاطين المماليك على دولة مغول إيران ، وذلك فى واحدة من أعظم المعارك الحربية التى دارت بين الطرفين .

وفى عصر الملك المؤيد إسماعيل صاحب حماة، وفى سنة ٧١٥هـ/ ١٣١٥م ، اشتركت مملكة حماة بعسكرها ، وقيادة ملكها المؤيد مع الجيش المملوكى ، تحت قيادة الأمير تنكز نائب السلطنة بدمشق، فى فتح مدينة ملطية من بلاد الروم [٢] التى تتاخم بلاد الشام ، وكانت هذه المدينة تتبع فى هذا التاريخ دولة مغول إيران .

وقد أدى الملك المؤيد إسماعيل دورا هاما فى الحصار الذى فرضه الجيش المملوكى عليها ، حتى استسلم حاكمها ، وفتح أبوابها للمماليك، ولقد نأى الملك المؤيد عسكره من اقتحام المدينة عند انفتاح الباب القبلى المواجه له وسلبها ونهبها،ولما حضر الأمير تنكز، وكان فى الجهة الأخرى من

---

(١) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ص ١٤ ، ١٥.

(٢) بلاد الروم : هى آسيا الصغرى ، وقد عرفت ببلاد الروم ؛ لأنها كانت تابعة لدولة الروم المعروفة بالأمبراطورية البيزنطية الكبرى.

المدينة، أقام على الباب جماعة من العسكر، وما إن حدث ذلك حتى هجمت العساكر على المدينة من جهاتها المختلفة، وأعملوا فيها السلب والنهب[١].

ثانيا : المشاركة فى الحروب الصليبية :

ميدان آخر هام من ميادين الحروب شاركت فيها مملكت حماة الجيوش المملوكية، هو الميدان الصليبى فى أرض الشام.

وقد بدأت هذه الحروب بفتح مدينة صفد[٢] فى سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م، وذلك فى عصر السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى . وكان العسكر الحموى تحت قيادة ملكها المنصور محمد[٣] .

وفى سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م شارك العسكر الحموى ، بقيادة الملك المظفر الثالث محمود صاحب حماة، الجيش المملوكى أيام السلطان قلاوون في فتح حصن المرقب. وكان هذا الفتح هو بداية الفتوحات المباركة للمماليك وطرد الصليبيين من البلاد الشامية[٤].

---

(١) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ص ٧٤-٧٦.

(٢) قلعة حصينة من قواعد بلاد الشام ، بناها فولك ملك بيت المقدس الصليبى سنة ١١٤٠م/ ٥٣٥هـ ، ياقوت : معجم البلدان ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ٦٠٠.

(٣) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ص ٣ .

(٤) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ص ١٣.

وقد اشترك فى هذه المعركة مع العسكر الحموى كل من الملك الأفضل عم الملك المظفر ، وابنه الملك المؤيد إسماعيل، وكان الأخير مازال ابن اثنتى عشرة سنة فى هذا التاريخ ، كما كان أول حرب يشترك فيها[١].

ثم فى سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م شارك الملك المظفر، وأخوه الملك الأفضل، وابن أخيه المؤيد إسماعيل بالعسكر الحموى فى فتح مدينة طرابلس الشام[٢].

وكانت قمة المشاركة لعسكر مملكة حماة للجيوش المملوكية، فى هذه الحروب الصليبية الأخيرة بأرض الشام فى فتح عكا[٣] ، آخر المعاقل الصليبية الهامة، وقد تم هذا الفتح الكبير تحت قيادة الملك الأشرف خليل بن قلاوون فى سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م[٤].

وكان العسكر الحموى عند حصار عكا فى ميمنة الجيوش المملوكية كعادته تحت قيادة ملكها المظفر محمود. وقد عانا عسكر حماة عناء كبيرا، وجاهد جهاد الصابرين ؛ وذلك بسبب موضعه فى ميدان المعركة ، حيث كان يقف قبالة أسوار عكا ، بينما كان من يمينهم البحر، ويأتى الصليبيون من

---

(١) ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ٢ ص ٣٣٢ ، ٣٣٣.

(٢) ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ٢ ص ٣٣٥.

(٣) بلد على ساحل فلسطين بالشام وكانت من عمل الأردن قديما، وقد بنى سورها العظيم أحمد بن طولون، صفى الدين البغدادى : مراصد الطلاع ، جـ٢ ص ٩٥٤.

(٤) العينى : عقد الجمان ، جـ٣ ص ٥٦.

خلاله بالمراكب الحربية والمجانيق لرميهم من جهة اليمنى ، خلاف مايتلقونه من الواقفين على أسوار عكا[١].

كما أن الصليبين فى ليلة من ليالى الحصار كبسوا على عسكر حماة فى خيامهم ، ولكن الحمويين سرعان ما آفاقوا من هذه المباغتة وأعملوا فيهم سيوفهم حتى هزموهم فارتد الصليبيون إلى عكا بعد أن قتل منهم عدد كبير . فلما أصبح الصباح ، علق الملك المظفر صاحب حماة، عدة من رءوس الصليبيين فى رقاب خيولهم التى كسبها العسكر منهم، وأحضرهم على هذه الصورة إلى السلطان الأشرف خليل[٢].

وهكذا كان لصمود عسكر حماة على هذا النحو الذى رأيناه ، من جهة ، واشتداد الحصار على عكا من جميع جهاتها من جهة أخرى، دوره الفعال فى فتح هذه المدينة الحصينة.

ولقد أدى هذا الفتح العظيم إلى انهيار الجبهات الصليبية الأخرى، ويأس البقايا الباقية منهم من بقائهم بأرض الشام، وذلك بخلاف الرعب الذى تملكهم إثر فتح عكا ، فأخلوا صيدا، [٣].

---

(١) ابن الوردى : تتمة المختصر جـ٢ ص ٣٣٦.

(٢) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ص ٢٥ .

(٣) صيدا : مدينة ساحلية قديمة ، قيل انها سميت على اسم صيدون بن صدقا بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام، وكانت ولاية جليلة واسعة من أعمال دمشق فى هذا التاريخ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٤ ص ١١١.

وبيروت، وصور[1] وعثليث [2] ، وانطرسوس [3]، وخربت هذه المدن عن آخرها[4].

فتكاملت بذلك فتح جميع البلاد الساحلية من أرض الشام وطهر منها الصليبيون[5].

وقد رافق الملك المؤيد أبو الفدا إسماعيل ابن عمه الملك المظفر صاحب حماة فى فتح عكا، وكان وقتها أمير عشرة [6] وأبلى فيها بلاء حسنا، كما اضطلع بواجباته الحربية على خير وجه . وسطر ذلك فى كتابه " المختصر فى أخبار البشر" بالتفصيل[7].

---

(١) مدينة مشهورة عظيمة على ساحل البحر الشامى ، وحصينة جدا ، وهى فى داخل البحر كالكف على الساعد، وتقع بين صيدا وعكا ، صفى الدين البغدادي : مراصد الاطلاع ، جـ٢ ص ٨٥٦.

(٢) عثليث : حصن على ساحل البحر ، يعرف بالحصن الأحمر ، وتقع بين عكا وقاقون ، ومن أعمال صفد ، القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٤ ص ١٥٢، صفى الدين البغدادي : مراصد الاطلاع ، جـ ٢ ص ٩٢٠.

(٣) بلدة من سواحل بحر الشام ، ثغر لأهل حمص من أعمال طرابلس، القلقشندي : صبح الأعشى جـ٤ ص ١٤٨.

(٤) المقريزى : السلوك ، جـ١ ص ٧٦٣ -٧٧٨ ، ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ٢ ص ٣٣٦.

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٣ ص ٣٢٠ ، ٣٢١.

(٦) مرتبة عسكرية يكون فى خدمة صاحبها عشرة مماليك ، المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٢١٥، ٢١٦.

(٧) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ص ٢٥ ، ٢٦.

وهكذا كان لعسكر مملكة حماة بقيادة أصحابها من بنى المظفر، دور فعال ومثمر فى تخليص بلاد الشام من براثن الصليبيين ، الذين ظلوا بها مال يقرب من مائتى عام [١].

ثالثا : المشاركة فى حرب الأرمن:

ميدان هام ثالث شارك فيه ملوك حماة من بنى المظفر وعسكرها ،وهو ميدان الحروب فى بلاد الأرمن.

وكانت للأرمن قديما مملكة كبيرة واسعة الأرجاء ، إلا أنها تقلصت مع مرور الزمن، ولم يبق منها فى هذا التاريخ غير سيس[٢]، وبعض القلاع المحيطة بها، والواقعة فى الجنوب الشرقى من أسيا الصغرى ، بين حلب وبلاد الأناضول المعروفة فى ذلك الحين ببلادالروم وأيضا ببلاد الدووروب[٣]. ومن هنا عرفت بلاد الأرمن بعد تقلصها بمملكة أرمينية الصغرى ، وبمملكة سيس؛ نسبة إلى أكبر وأهم مابقى للأرمن من بلاد[٤].

وبحكم هذا الموقع فقد جاورت هذه المملكة الصغيرة دولة سلاطين المماليك، وقد أسفر ذلك عن عداء سافر بين الدولتين ، وذلك منذ قيام الدولة المملوكية الأولى.

---

(١) ارنست باركر : الحروالصليبية ، ص ٢٨ ، ٢٩ ، ١٦٩.

(٢) انظر عنها ماسبق قوله ص ٤٦.

(٣) العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ٤٠ ، لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٥٩-١٩٢.

(٤) العمرى : مسالك الأبصار ، جـ٢ ق ٣ ورقة ٤٠٤ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ٤ ص ١٣٤-١٣٧.

وكانت البداية فى مشاركة العسكرين الحموى والمملوكى فى الحروب الأرمينية المملوكية سنة ٦٦٤هـ /١٢٦٦م. ففى هذه السنة جرد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى جيشا مصريا وشاميا، بقيادة الملك المنصور محمد صاحب حماة للإغارة على أرمينية، وكان ضمن هذا الجيش بعض الأمراء الكبار، وعلى رأسهم الأمير الكبير سيف الدين قلاوون، الذى أصبح سلطانا للمماليك فيما بعد[١].

وسار الملك المنصور محمد صاحب حماة بجيشه إلى سيس ، والتقى هناك بعدد من الجيوش الأرمينية بقيادة ابن كبير ملوكهم ليفون بن هيثوم[٢]، وعدد آخر من ملوكهم. وقد أسفرت عن هزيمة ساحقة للجيوش الأرمينية، سقط فيها عدد من ملوكها بين قتيل وأسير، وقتل عدد كبير من أبطالهم وجنودهم ، وفر من بقى منهم من ميادين القتال. وكان على رأس الأسرى ليفون بن هيثوم[٣].

ودخلت العساكر المصرية والشامية تحت قيادة الملك المنصور محمد صاحب حماة سيس ، فأخربوها وجعلوا عاليها سافلها ، وأقاموا فيها أياما

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ١ ص ٥٤٩.

(٢) هو هيثوم بن قسطنطين بن باسيل ملك الأرمن ، وكان قد اعتزل الحكم فى هذا التاريخ وأقام ابنه ليفون بدلا منه ، وتوفى هيثوم سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٦م، ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ٢ ص ٣١٥.

(٣) فك أسره بعد سعى والده فى هذا الأمر ، وتولى ملك سيس بعد وفاة والده هيثوم سنة ٦٦٩هـ ، أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ص ٥-٧.

يحرقون ويقتلون ويأسرون. وقد جرد الملك المنصور من سيس الأمير عز الدين أوغان[١] إلى جهة الروم ، كما جرد الأمير قلاوون إلى جهة المصيصة وأذنة وأياس وطرسوس[٢]، فقتلوا وأسروا ، وهدموا عدة قلاع وأحرقوها. ثم عاد الجيشان المجردان إلى سيس، وقد اجتمع لهم من الغنائم مالا يعد ولايحصى ، حتى أبيع الرأس من البقر بدرهين ، ولم يوجد من يشتريه[٣].

وقد أثبت الملك المنصور صاحب حماة فى حرب البلاد السيسية قدرته الفائقة فى قيادة الجيوش ، وحسن إدارته للحروب والتخطيط لها . بدليل نجاح هذه الحملة نجاحا كبيرا.

وكان لفرط سعادة الملك الظاهر بيبرس لما بلغه انتصار جيشه أن خرج من دمشق حتى أفاميه[٤]، مارابحماة ليستقبل عسكره المنتصر بقيـــادة

---

(١) هو الأمير عز الدين أوغان ، أو إيغان المعروف بـ " سم الموت" كان أحد كبار مماليك الظاهر بيبرس ، توفى سنة ٦٧٥هـ /١٢٧٦م ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ٣ ص ١٨٧ رقم ٦١٢.

(٢) قلاع قريبة من سيس ، كانت تابعة لها ثم أصبحت من البلاد المملوكية من أعمال حلب، القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص ٢٣٣، جـ ٤ ص٨٢ ، ٨٣ ، ١٣٣-١٣٥.

(٣) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ص ٥٥١ ، ٥٥٢.

(٤) أفامية ، أو فامية بدون ألف : مدينة من أعمال شيرز غربى حلب ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ٤ ص ١٣٥.

صاحب حماة . ثم عاد إلى دمشق وملوك الأرمن قدامه راكبين، وأسراهم مساقين أمامه، بينما كانت العساكر المصرية والشامية فى تجمل عظيم[١].

وعاد الملك المنصور صاحب حماة إلى مملكته ، بعد أن أدى دورا عظيما فى حرب الأرمن، وذلك بعد أن أنعم عليه السلطان بيبرس بكثير من الخيول والأموال[٢].

وفى سنة ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م، فى عهد الملك السيعد بركة بن بيبرس، الذى كان قد تولى الملك بعد وفاة والده سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م[٣]، شارك الملك المنصور محمد صاحب حماة بعسكره الجيش المملوكى الذى كان يقوده الأمير قلاوون فى هذه المرة ، فى غارة أخرى على البلاد أرمينية ، وعادت هذه الجيوش بعد أن غنمت كثيرا[٤].

ثم فى سنة ٦٩١هـ/ ١٢٩١م وفى عصر كل من الملكين المظفر محمود صاحب حماة، والسلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، اشترك الجيشان المملوكى والحموى، فى فتح قلعة الروم[٥] ، وكانت قلعة فى غاية الحصانة.

---

(١) العينى : عقد الجمان ، جـ١ ص ٤٢٢ - ٤٢٤.

(٢) المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٥٥٣.

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٧ ص ١٧٧ ، ٢٥٩ .

(٤) أبو الفدا : المختصر ، جـ ٤ ص ١١.

(٥) سبق أن حددنا موقع هذه القلعة ، انظر ٦١.

وقد حاصرت الجيوش المملوكية بقيادة السلطان الأشرف خليل قلاوون قلعة الروم فى العشر الأول من جمادى الآخرة سنة ٦٩١هـ. وكانت منزلة العسكر الحموى بقيادة الملك المظفر محمود، ومعه عمه الملك الأفضل على، وابن عمه ابو الفدا إسماعيل على راس الجبل المطل على القلعة من شرقيها، إلي درجة أنهم كانوا يشاهدون من موقعهم هذا أحوال أهل القلعة؛ فى مشيهم وسعيهم. ونصب عليها الحمويون منجنيقهم.

وقد أدى عسكر حماة بقيادة صاحبها المظفر بالاضافة إلى منجنيقهم، دورا هاما فى سقوط قلعة الروم واستسلامها. وسميت هذه القلعة بعد الاستيلاء عليها بقلعة المسلمين(١).

وظلت الغارات المملوكية بعد ذلك، تتوالى على بلاد الأرمن، بمشاركة العسكر الحموى فى فترات حكم كل من: السلطان كتبغا المنصورى، والسلطان حسام الدين لاجين، والناصر محمد بن قلاوون من جهة، والملك المظفر محمود، والملك المؤيد إسماعيل، والملك الأفضل محمد بن المؤيد إسماعيل أصحاب حماة من جهة أخرى، وقد سقطت فيها كثير من المدن والقلاع الأرمينية(٢).

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٣ ص ٣٢٠، أبو الفدا: المختصر، جـ٤ ص ٢٦، ٢٧، القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص ١٧٩، المقريزي: السلوك جـ١ ص ٧٧٧، ٧٧٨.

(٢) ابن حبيب: تذكرة النبيه جـ١ ص ٢٠٢، ٢٠٣، ابن الوردى: تتمة المختصر جـ٢ ص ٣٤٦، ٣٤٧، أبو الفدا: المختصر جـ٤ ص ٥١، ٨٨، ٨٩، ٩١، المقريزى: السلوك جـ١ ص ٤٤٥.

وكانت آخر هذه الغارات المملوكية على أرمينية، وذلك بمشاركة عسكر حماة ، فى سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، والملك الأفضل صاحب حماة ، وقد سلم فيها الأرمن مجبرين مدنا وقلاعا كثيرة ، وقد عرفت بالفتوحات الجاهانية : لوقوع هذه المدن والقلاع على نهر جيحان والمعروف عند العامة بنهر جاهان[١].

المشاركة فى الحروب الداخلية:

سبق أن ذكرنا أن ملوك حماة، لم يقفوا أبدا موقف العناد والعداء لسلاطين المماليك القائمين بالديار المصرية، ولم يخرجوا بجيش لمناهضتهم . اللهم إلا وقوف الملك المؤيد إسماعيل بجوار الملك الناصر ومساعدته أيام محنته فى الكرك سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، واشتراكه مع أمراء البلاد الشامية فى إعادة الناصر إلى ملكه فى سلطنته الثالثة . ولم يكن الملك المؤيد فى ذلك الحين ملكا على حماة ، بل كان أميرا بالبلاد الشامية فقط[٢].

كذلك تجنب ملوك حماة مشاركة الخارجين من كبار الأمراء فى بلاد الشام ، ضد سلاطين المماليك، وقد رأينا سابقا كيف أن الملك المنصور محمد صاحب حماة ، امتنع عن مشاركة علم الدين سنجر الحلبى نائب السلطنة بدمشق ، عند خروجه ضد السلطان الملك الظاهر بيبرس، إثر اعتلائـــــــه

(١) ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ ٢ ص ٤٤٥ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص ٢٣٣ ، جـ٤ ص ٨٢ ، ١٧٩.

(٢) انظر ماسبق ص ٩٣.

السلطنة بعد قتل السلطان قطز ، سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م . وقال المنصور وقتها جملته المشهورة : "أنا مع من يملك الديار المصرية كائنا ما كان" [(١)].

وامتنع الملك المنصور محمد صاحب حماة أيضا عن مشاركة الأمير البرلى ، حين خرج فى البلاد الشامية عن طاعة السلطان الظاهر بيبرس، وذلك على الرغم من إغراء الأمير له باعادة ملك أسلافه الأيوبيين الذى ضاع[(٢)].

أما ما كان من وقوف الملك الأفضل أخى الملك المنصور صاحب حماة بعسكره فى سنة ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م ، في صفوف الأمير سنقر الأشقر نائب السلطنة بدمشق ، ضد السلطان المنصور قلاوون فلم يكن - كما رأينا وقوفا جادا - بدليل أنة انسحب من ميدان المعركة بعسكره فى لحظة التحام الجيش الشامى والمصرى. وكان لانسحاب الجيش الحموى أكبر الأثر فى الهزيمة الساحقة للأمير سنقر الأشقر[(٣)].

هذا فى أمر وقوف أصحاب حماة فى صفوف الخارجين من أمراء البلاد الشامية، ضد سلاطين المماليك بالديار المصرية من جهة، ومن جهة أخرى نفذ ملوك حماة أوامر سلاطين المماليك ، فى تجريد العسكر الحموى لقتال الأمراء الخارجين عليهم ، مشاركين فى ذلك الجيوش المملوكية المساندين للسلطة الشرعية.

---

(١) انظر ماسبق ص ٣٣.

(٢) انظر ماسبق ص ٣٥.

(٣) انظر ماسبق ص ٤٧ ، ٤٨.

ومن هذا القبيل ما كان من الملك المؤيد إسماعيل صاحب حماة من خروجه على رأس جيش فى طلب الأميرين الهاربين شمس الدين قراسنقر الذى كان نائبا للسلطنة بحلب [١] وشمس الدين أقوش الأفرم[٢]، وكان نائبا للفتوحات[٣]. ومن شاركهما فى الخروج عن طاعة السلطان. وإن كان الأميران ومن وافقهما قد استطاعوا الهروب إلى البلاد المغولية [٤].

كذلك جرد الملك المؤيد إسماعيل بأمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧٢٦هـ عسكرا حمويا إلى الرحبة بقيادة أخيه بدر الدين حسن، وابن أخيه محمود بن عمر[٥]؛ وذلك لحفظ زرعها من العربان المغيرين، وطرد الأمير مهنا بن عيسى أمير العرب لخروجه عن طاعة السلطان[٦].

---

(١) انظر ماسبق قوله عن هذا الأمير ، ص ٧٣، ٨٢، ٨٣.

(٢) هو أقوش بن عبد الله المنصورى ، الأمير جمال الدين المعروف بالأفرم، توفى فى بلاد المغول سنة ٧٢٠هـ. ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ٣ ص ٩ رقم ٥١١.

(٣) قلنا أن المقصود بالفتوحات طرابلس والقلاع الساحلية التى فتحت عهدى المنصور قلاوون وابنه الأشرف خليل.

(٤) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ص ٦٦ .

(٥) سبق ترجمتنا لكل من بدر الدين حسن أخى المؤيد ومحمود بن عمر ابن أخيه ، انظر ص ٩٥.

(٦) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ص ٩٥.

وهكذا كان لملوك حماة وعسكرها مشاركات إيجابية فى الحروب التى خاضتها الجيوش المملوكية، فى الخارج والداخل ، فى مختلف عهود سلاطين المماليك بالديار المصرية.

* * * * *

الفصل السابع

أصحاب حماة

بين الملك والنيابة

وأخيراً وقبل أن نسدل الستار عن هذا البحث علينا أن نستعرض نقطة هامة من نقاطه، وقضية جديرة بالمحاورة والمداولة؛ لما فيها من إشكالات ومعضلات، وماظهر فيها من تناقضات وشبهات، حتى نصل إلى حكم واضح فى أمرها ، وتحديد دقيق لمسارها .

وتتمثل القضية فى :

أكان أصحاب حماة فى عصر سلاطين المماليك نواباً، أم كانوا ملوكاً؟

ولانريد أن نسبق الحوادث، ونقرر بادئ ذى بدء حكماً على أحوال أصحاب حماة على عهد المماليك؛ وذلك قبل أن نستعرض مالهم وماعليهم؛ ليكون حكمنا قريباً من الحقيقة والواقع .

والحق أن للقضية جوانبها المتعددة والمختلفة، حتى لتبدو أنها تتناقض مع بعضها البعض أحياناً. ولكن أرى أنه باستعراضنا الجوانب الدالة على أن أصحاب حماة كانوا نواباً ، والجوانب الدالة على أنهم كانوا ملوكاً، نستطيع أن نصل إلى واقع أمرهم ومصير أحوالهم .

أولاً: النيابة والدلالة:

هناك دلالات توحى بأن أصحاب حماة من أصحاب حماة من ملوك بنى المظفر الأيوبى، كانوا نواباً فى عصر سلاطين المماليك؛ وذلك بالرغم من أنهم لقبوا بألقاب الملوك بل والسلاطين أيضاً ، وهى :

١ - إقامة الخطبة لسلاطين المماليك فى حماة :

أن أول مايؤيد هذا الإتجاه فى أحوال أصحاب حماة، هى إقامة الخطبة لسلاطين المماليك فى حماة. يقول العينى فى هذا الصدد عن أحداث سنة ٦٥٩ هـ/١٢٦٠م : «واستقرت دمشق فى ملك الظاهر بيبرس ، وأقيمت له الخطبه بها، وبغيرها من الشام، مثل حماة وحلب وغيرها»[١] .

فإذا كانت الخطبة قد أقيمت للظاهر بيبرس البندقدارى فى حماة على أيام الملك المنصور محمد الذى كان يملك حماة، قبل قيام دولة سلاطين المماليك ، وليس للمماليك فضل عليه فى ملكه سوى إقرارهم باستمرار ملكه، كانت إقامة الخطبة لسلاطين المماليك بحماة أولى فى أيام غيره من ملوك بنى المظفر ، بعد أن أصبح فضل إقامتهم بها فى يد المماليك ، سواء بتعيينهم فى الملك رأساً، كما كان من أمر الملك المؤيد إسماعيل، حين عينه الناصر محمد بن قلاوون ملكاً على حماة، أو بالموافقة على تعيينهم فى الملك عن طريق التماس من الملك السابق أو غيره، كما كان فى حالة ملك كل من الملك المظفر الثالث محمود ، الذى أقر فى ملكه بالتماس من والده الملك المنصور، وكما كان فى حالة الملك الأفضل .

محمد، فقد توسط تنكز له عند الناصر محمد بن قلاوون لتعيينه مكان والده[٢] .

ويدل كل ماسقناه آنفاً على تبعية حماة للدولة المملوكية، وبالتالى تبعية ملوكها لسلاطين المماليك ، مما يجعلهم بمثابة نواب بحماة وإن لقبوا بألقاب الملوك والسلاطين .

---

(١) العينى: عقد الجمان، جـ١ ص٢٩١ .

(٢) انظر ، سبق ص١٢٩.

٢ - عزل ملوك حماة وتعيينهم :

كان فى يد سلاطين المماليك عزل ملوك حماة ، وذلك كما حدث لآخر ملوكها، وهو الملك الأفضل محمد بن الملك المؤيد إسماعيل، الذى قام بعزله كبار مماليك الناصر محمد بن قلاوون، أيام سلطنة الملك الأشرف كجك بن محمد بن قلاوون فى سنة ٧٤٢هـ[١] .

كذلك كان فى يد سلاطين المماليك عدم تعيين بنى المظفر عمر فى الملك أصلاً، مثل ماحدث بعد وفاة الملك المظفر الثالث محمود بن الملك المنصور محمد، وخلو ملك حماة فى سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م، فقد عين كبار الأمراء القائمين بالسلطة أيام الناصر محمد بن قلاوون فى بداية سلطنته الأولى نواباً بحماة. بداية من الأمير قبجق ونهاية بالأمير أسندمركسرجى[٢] وذلك دون مبالاة لورثة ملك حماة .

فإذا جاز إسقاط أصحاب حماة من ملكهم، وجاز تعيينهم وعدم تعيينهم من الأصل بيد سلاطين المماليك ، كانوا إذاً فى ملكهم لحماة، لايزيدون في حقيقة أمرهم عن النواب .

٣ - تنفيذ أوامر سلاطين المماليك :

كان ملوك حماة بحكم موقع مدينتهم داخل دولة سلاطين المماليك ينفذون أوامر السلاطين القائمين بالديار المصرية . ولقد ظهر ذلك واضحاً فى كثير من الأحداث التى ذكرناها سابقاً، مثل إشتراكهم فى الحروب الخارجية والداخلية، لصالح الدولة المملوكية بأمر سلاطين المماليك، ومثل حضورهم من حماة لخدمة السلطان المملوكى فى القاهرة أو دمشق، وذلك بناء على أوامره، وغير ذلك[٣]. ولايحتاج منا ذلك إلى كبير عناء، لاثبات

---

(١) انظر ما سبق ص ١٣٨، ١٣٩.

(٢) انظر ما سبق ص ٨١-٨٧.

(٣) انظر ما سبق فى الفصول السابقة.

هذه التبعية الواضحة من أصحاب حماة لسلاطين المماليك ، مما يجعلهم حيال ذلك نواباً لاملوكاً .

٤ - اشتراكهم فى الحروب تحت قيادة أمير :

فى عدد من الحروب الخارجية والداخلية ، عين سلاطين المماليك أميراً مملوكياً قائدا للجيوش، وذلك بالرغم من وجود ملوك حماة وعسكرها ضمن هذه الجيوش - كما رأينا ذلك سابقاً - ، ودون شك يزيد هذا الأمر من تبعية ملوك حماة فى أوقات الحرب ليس لسلاطين المماليك فقط، ولكن لكبار قادتهم من أمراء المماليك أيضاً. وإذا تتبعنا المعارك التي اشترك فيها ملوك حماة بعسكرهم مع الجيوش المملوكية ، لوجدنا أمثلة كثيرة لما نقول[١] .

٥ - استشارة السلاطين عند تعيين كبار الموظفين :

كان على أصحاب حماة عند تعيين كبار موظفى المملكة من عسكريين ومدنيين، إستشارة سلاطين المماليك فيمن يقع عليهم الاختيار للمناصب الديوانية .

وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على أن سلطات ملوك حماة لم تكن مطلقة فى مملكتهم[٢] .

٦ - ومن هنا ولهذه الأسباب السابقة، التى أجمعت على أن ملوك حماة كانوا بمثابة نواب لحماة لاأكثر، يقول المؤرخ الكبير شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى - المولود سنة ٦٧٧هـ/١٢٧٨م، والمتوفى سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٢م[٣]، والذى عاش جانباً من تاريخ أصحاب حماة

---

(١) انظر ماسبق ذكره فى الفصل السابع .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٤ ص٢٣٧ .

(٣) ابن حبيب : درة الأسلاك ص٢٨١، ابن حجر: الدرر الكامنة، جـ١ص١٩٧ رقم ٦٠٥.

فى عصر سلاطين المماليك، وذلك بعد استعراضه لملوك حماة فى العصرين الأيوبى والمملوكى ، يقول النويرى : «وملوك حماة - وإن لقبوا بألقاب الملوك ، وخوطبوا وكوتبوا بما يخاطب ويكاتب به الملوك - فلا تعدو أيامهم من جملة الدولة الأيوبية؛ لأنهم فى الخدمة السلطانية على رسم النواب»[١] .

ثانيا: علامات الملك:

إذا كنا قد رأينا دلائل وإشارات على أن أصحاب حماة، لم يكونوا أكثر من نواب مهما لقبوا بألقاب الملوك؛ فإن هناك أيضاً علامات بارزة، على أن أصحاب حماة كانوا ملوكاً لانواباً. ويتضح ذلك فى الآتى :

١ - التلقيب بالملك والسلطنة :

لم يلقب أحد بملك أو سلطان ، داخل الدولة المملوكية بخلاف سلاطين المماليك غير أصحاب حماة؛ وذلك مهما كبرت مساحة النيابات، أو علت مراتب النواب . ومن المعروف أن نيابة دمشق كانت أكبر النيابات وأهمها. وكانت تأتى بعدها حلب، ثم حماة بعد أن أصبحت نيابة[٢]. ولم يلقب أحد من نواب دمشق وحلب- على الرغم من كبرهما وعلو مرتبهما - بالملك أو السلطنة، كما كان يلقب بهما أصحاب حماة .

فالأمير الكبير تنكز نائب دمشق، وعلى الرغم من أنه قد وصل إلى أعلى المراتب بين نواب البلاد الشامية، حتى أن الناصر محمد بن قلاوون أمر

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ، جـ٢٩ ص٤١١ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٤ ص٩١، ١١٦، ١٣٩ .

نواب الشام أن يكاتبوه بجميع ماكانوا يكاتبون به السلطان، وهو يكاتب عنهم[1]؛ إلا أن الأمير تنكز مع كل هذا العلو والارتقاء لم يلقب بألقاب الملك .

كذلك الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، مع مابلغه من نفوذ وسلطة؛ وذلك بعد وقوع الصلح بينه وبين السلطان قلاوون[2]، ونيابته إثر هذا الصلح لعدد كبير من البلاد والقلاع فى بلاد الشام، لم تعط له ألقاب الملوك، أو حتى ألقاب الأمراء. يقول أبو المحاسن يوسف ابن تغرى بردى الأتابكى، المتوفى سنة ٨٧٢هـ/١٤٧٠م[3]، فى هذا الشأن ، وذلك فى معرض ترجمته للمذكور : «وعوضه الملك المنصور - يعني قلاوون - عنها،، أفامية[4]، وكفر طاب[5] ، وأنطاكية[6]، والسويداء[7]، والشغر وبكاس[8]، وديركوش[9] بأعمالهما كلها، وعدة ضياع مفرقة ، وأن يقيم على ذلك ، وعلى ماكان استقر بيده عند الصلح، وهو صهيون[10] .

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ١ ص٥٢٠، ٥٢١ .

(٢) سبق أن ذكرنا عن خروج المذكور على السلطان قلاوون، ص ٤٧، ٤٨ .

(٣) عن ترجمته انظر ، ابن إياس : بدائع الزهور، جـ٣ ص٤٥ .

(٤) انظر عنها ماسبق ذكره فى ص ١٦١ .

(٥) بلدة بين المعرة وحلب ، صفى الدين البغدادى: مراصد الاطلاع، جـ٣ ص١١٧٠.

(٦) مدينة عظيمة عند الثغور، وكانت قاعدة العواصم، أبو الفدا: تقويم البلدان ص٢٥٦، ٢٥٧ .

(٧) بلدة مشهورة فى ديار مضر قرب حران، ياقوت : معجم البلدان، باب السين.

(٨) قلعتان حصينتان تقعان بين أنطاكية وفاميه، أبو الفدا: تقويم البلدان ص٢٦٠، ٢٦١.

(٩) حصن قرب أنطاكية ، ويقال لها «دركوش» صفى الدين البغدادى: مراصد الاطلاع جـ٢ ص٥٢٤ .

(١٠) بلدة ذات قلعة حصينة فى جنوب اللاذقية أبو الفدا: تقويم البلدان ، ص٢٥٧.

وبلاطنس[١]، وجبلة[٢]، واللاذقية[٣]، وخوطب بـ «المقر العالى[٤] المولوى، السيدى، العالى، العادلى، الشمسى. ولم يصرح له بلفظ ملك ولاأمير»[٥] .

فإذا كان من وصلوا إلى أعلى الرتب وأرقاها من نواب البلاد المملوكية، لم تعط لهم ألقاب الملوك، إذاً كانت هذه الألقاب لاتعطى للنواب مهما بلغت مرتبتهم علواً وارتقاء، ومهما بلغت مساحة نياباتهم طولاً وعرضاً.

ولما كان أصحاب حماة قد لقبوا بألقاب الملوك والسلاطين كما رأينا سابقاً، كانوا دون شك أعلى وأرفع شأناً من مرتبة النواب مهما بلغت نيابتهم علواً واتساعاً .

---

(١) حصن منيع بسواحل الشام مقابل اللاذقية، ياقوت: معجم البلدان، باب الباء .

(٢) قلعة مشهورة من أعمال اللاذقية، صفى الدين البغدادى: مراصد الاطلاع، جـ١ ص٣١٢ .

(٣) مدينة رومية عتيقة على ساحل بحر الشام من أعمال حلب ياقوت : معجم البلدان ، باب اللام .

(٤) المقر : أصله فى اللغة لموضع الاستقرار ، والمراد الموضع الذى يستقر فيه صاحب اللقب كناية عن النطق باسمه ، وهو من ألقاب كبار النواب، وبعض الملوك الأجانب ، وبعض كبار الديوانيين، المحبى: تشقيق التعريف، ص١٤٩، ١٥٠، القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٧ ص١٤٠، عبد الرحمن أمين : من قواعد تحديد الرتب ص٣٣٩ .

(٥) ابن تغري بردى : المنهل الصافى ، جـ٦ ص٨٧ - ٩٥ رقم ١١٢٣ .

٢ - ألقاب أصحاب حماة فى المكاتبات :

كذلك كان لأصحاب حماة ألقاب الملوك والسلاطين فى المكاتبات الصادرة عن سلاطين المماليك من ديوان الإنشاء بالديار المصرية .

والمعروف أن الألقاب فى المكاتبات كانت من أهم قواعد تحديد رتب المكتوب إليهم، من الأبواب السلطانية بالديار المصرية، زمن سلاطين المماليك[١] .

وقد كوتب أصحاب حماة فى المكاتبات الديوانية بلقب «المقام»[٢]. وكان هذا اللقب من الألقاب الأصول، الذى لايعطى إلا لطائفة الملوك والسلاطين ، بينما أقصى ماكوتب به نائبى مصر ودمشق فى المكاتبات الديوانية، كان بلقب المقر، وهو لقب يكاتب به كما رأينا آنفاً كبار النواب، وبعض الملوك الأجانب، وبعض كبار الديوانيين، والواضح كما نرى أن المقام كان أعلى رتبة من المقر عند الديوانيين[٣].

وقد كاتب الملك المنصور قلاوون الألفى الملك المنصور محمد صاحب حماة بـ«أعز الله أنصار المقام العالى» ، كما كاتب ابنه الملك المظفر محمود فى بداية ملكه لحماة، بـ «أعز الله نصرة المقام العالى»[٤] .

---

(١) عبد الرحمن أمين: من قواعد تحديد الرتب، ٣٢٨ .

(٢) سبق أن تحدثنا عن هذا اللقب ، انظر ص ٥٢.

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى، جـ٧ ص١٩، ٢٠، ١٤٠، عبد الرحمن أمين: من قواعد تحديد الرتب، ص٣٣٥ - ٣٣٩ .

(٤) انظر : ص ٥٧ .

أما الملك المؤيد إسماعيل، وابنه الملك الأفضل محمد، فقد استقرت المكاتبة إليهما، من دواوين الإنشاء بالديار المصرية، زمن الناصر محمد بن قلاوون بـ«أعز الله أنصار المقام الشريف العالى»(١).

ونلاحظ فى هذه المكاتبة زيادة الشريف بين المقام والعالى والشريف من توابع الألقاب الأصول، الذى لايأتى تابعاً إلا مع الألقاب الأصول العالية الرتبة، ويسبق العالى - من الألقاب التوابع - فى رتبة الكتابة(٢) .

يقول القلقشندى فى معرض ذكره لألقاب الملوك المستقلين بصغار البلدان : «كما كان صاحب حماة فى الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» وكان يكتب له : «المقام الشريف العالى السلطانى الملكى الفلانى، بلقب الملك . وربما كتب له قبل لقب الملك «الأصيلى» لعراقته فى الملك(٣) .

ولاشك أن ماذكره القلقشندى آنفاً، قد رفع أصحاب حماة إلى درجات فى رتب المكاتبة إليهم ليس على النواب فقط، بل وعلى بعض الملوك أيضاً؛ إذ يوجد بين الملوك من هو غير عريق فى ملكه .

وهذه الرتبة فى المكاتبات إلى أصحاب حماة ، بالنسبة للمكاتبات الصادرة إليهم من الديوان الشريف السلطانى بالديار المصرية، أما بالنسبة للمكاتبات الصادرة إليهم من دواوين النيابات الشامية ففوق ماتقدم زيد

---

(١) المحبى : تثقيف التعريف، ص٤٠، ٤١، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، جـ٢ ص٤٠٠ .

(٢) عبد الرحمن أمين: من قواعد تحديد الرتب ص٣٤١ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٦ ص١٢٥ .

بمرسوم من الملك الناصر محمد بن قلاوون فى افتتاحية مكاتبتهم للملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بـ «يقبل الأرض»، حتى أن الأمير تنكز - كبير نواب الشام - صار يكتب للمؤيد بذلك[١] .

ومن ذلك كله نخرج بأن أصحاب حماة ، كانوا يكاتبون بألقاب الملك والسلطان ، ولم يكاتبوا أبداً بألقاب النواب؛ مما يدل على الفرق الكبير بينهم وبين نواب الشام ، بل ونائب السلطنة بمصر أيضاً .

٣- الركوب بشعار السلطنة :

رأينا فيما سبق كيف أن أصحاب حماة عند صدور التقليد بملكهم كانوا يركبون بشعار السلطنة؛ فى الديار المصرية ، أو فى دمشق أحياناً عندما يكون السلطان المملوكى بها. فقد ركب الملك المظفر الثالث محمود بشعار السلطنة بدمشق ، بينما ركب كل من الملك المؤيد إسماعيل ، وابنه الملك الأفضل محمد بشعار السلطنة من المدرسة المنصورية وحتى القلعة بمصر[٢].

والركوب بشعار السلطنة بكل ماكان فى الركوب من بهاء وعظمة بلباس التشريف، وآلات الملك، والأعلام السلطانية، والسلاحدارية والدواب بالزينات ، والطبول والبوقات، وغير ذلك من رسوم المواكب[٣]. وكبار

---

(١) المقريزى: السلوك ، جـ٢ ص٣٥٤، ابن تغرى بردى: المنهل الصافى، جـ٢ ص٤٠٠ .

(٢) انظر عن ذلك ماسبق ، ص٥٨، ٥٩، ١٠٨، ١١١، ١٣٠.

(٣) انظر عن تفاصيل شعار السلطنة ، عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك، جـ٢ ص٦٠ ومابعدها .

الأمراء حول السلطان فى خدمته، نظام خاص للملوك والسلاطين وولاة عهودهم، وليس للنواب نصيب مهما علا شأنهم فى هذا الأمر . ولقد سبق أن ذكرنا بالتفصيل ركوب الملك المؤيد إسماعيل بشعار السلطنة بالديار المصرية، وكيف أن الأمير أرغون نائب السلطنة، وثانى رجل فى الدولة المملوكية مشى فى خدمة الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة[١].

وفوق كل هذا أنعم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون على الملك المؤيد إسماعيل ، فى سنة ٧١٣هـ/١٣١٣م، بسنجق بعصائب سلطانية[٢] يحمل على رأسه فى مملكته فى المواكب ، وغيرها. وهذا مما كان يختص به السلطان ، ولايسوغ لأحد غيره حمله[٣] .

٤ - وراثة الحكم :

لم يحدث أن نائباً من نواب دولة سلاطين المماليك ، أن ورث النيابة عن آبائه وأسلافه، كذلك لم يكن فى مقدوره أن يورث النيابة لولده من بعده. لكن أصحاب حماة من بنى المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبى، قد ورثوا الحكم ممن سبقوهم من الملوك، كما أورثوه لمن جاء بعدهم. ولو كان ذلك عن طريق استشارة السلطان المملوكى ، أو بالتماس من

---

(١) انظر ماسبق ، ص ١٠٠ - ١١١ .

(٢) العصائب مفردها عصابة: وهى راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب عليها ألقاب السلطان تحمل فى المواكب السلطانية، سعيد عاشور : العصر المماليكى، ص٤٥٧ .

(٣) أبو الفدا : المختصر، جـ٤ ص٧٢ .

أصحاب حماة لدى السلطان . المهم أنهم بطريقة أو بأخرى ورثوا الحكم وأورثوه ، ولم يكن ليحدث ذلك لو كان أصحاب حماة نواباً؛ ذلك لأن الوراثة من خصائص الملك والسلطنة .

٥ - حق تعيين كبار المعاونين :

كان من حق أصحاب حماة حسب التقاليد التى صدرت لهم من سلاطين المماليك ، تعيين جميع الإداريين المعاونين فى حكم مملكة حماة، كبيرهم وصغيرهم؛ من عسكريين ، وقضاة، ورجال الديوان، ورجال الدين، وغير ذلك من سائر الوظائف المعاونة، لتسيير الأمور الداخلية فى المملكة، إلا أنه كان عليهم عند تعيين كبار الموظفين استشارة السلطان المملوكى وأخذ رأيه فى كبار الموظفين الذين اختارهم بمعرفته؛ حتى ولو كانت هذه الاستشارة عملية صورية .

وفى هذا الشأن ورد فى صبح الأعشى فى صناعة الإنشا للعلامة القلقشندى «إن صاحبها كان يستقل فيها بإعطاء الإمرة، والاقطاع ، وتولية القضاة، والوزراء ، وكتاب السر، وسائر الوظائف بها، وتكتب المناشير[1] والتواقيع[2] من جهته. ولكن لايمضى أمراً كبيراً فى مثل إعطاء إمرة، أو

---

(١) المناشير، مفردها منشور، وهو عبارة عن كتاب يصدر من ديوان السلطان إلى الأمراء وغيرهم لتحديد إقطاعاتهم، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١٣ ص١٥٧ ومابعدها، سعيد عاشور: العصر المماليكى ص٤٥٥ .

(٢) مفردها توقيع وهو نوع من خطابات التعيين، المحبى: تثقيف التعريف ص٢٢٦ - ٢٣٤ .

وظيفة كبيرة حتى يشاور صاحب مصر، وهو لايجيبه إلا بأن الرأى ماتراه ، ومن هذا ومثله، وربما كتب له مرسوم شريف بالتصرف فى مملكته»[١].

وورد فى التقليد الذى أصدره الناصر محمد بن قلاوون للملك المؤيد عماد الدين إسماعيل فى سنة ٧١٣هـ/١٣١٣م، وذلك بعد تنازله عن المعرة لصالح الأمراء الذين أخرجهم السلطان الناصر من حماة إلى حلب. جاء فيه : «فليستقر جميع ماذكر بيده العالية، استقرار الدرر فى أسلاكها، والدرارى فى أفلاكها. يتصرف فى أحوالها بين العالمين، بنهيه وأمره، ويجرى أموالها بين المستوجبين بإنعامه وبره، ولايمضى أمر بغير منشوره الكريم، ولايجرى معلوم ولارسم إلا بمرسومه الجارى عن سنن سلفه القديم . وليفعل فى ذلك بجميع ماأراد كيف أراد، ويتصرف على مايختار فيما تحت حكمه الكريم، وبحكمه من مصالح العباد والبلاد. والله تعالى يعلى بمفاخر عماده، ويجعل التأييد والنصر قرين إصداره وإيراده . والخط الشريف حجة بمضمونه إن شاء الله تعالى. كتب فى التاسع عشر من المحرم سنة ثلاث عشرة وسبعمائة»[١].

فإذا كان لملوك حماة كل هذا الحق فى اختيار معاونيهم فى حكم مملكة حماة، وبالأخص العسكريين منهم، وكبار القضاة والوزراء وكتاب السر، فلم يكن فى نفس الوقت من حق النواب مهما كبرت مراتبهم تعيين كبار موظفى النيابة فى نياباتهم، إذ أنه كان يصدر من ديوان الإنشاء بالديار المصرية بإشارة السلطان التقاليد والمراسيم والتواقيع ، بشأن تعيين كبار موظفى

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٤ ص٢٣٧، جـ١٠ ص١٨٢، ١٨٣ .

(٢) أبو الفدا: المختصر جـ٤ ص٧٢ .

النيـابات بمختلف أنواعـهم ، وذلك دون أن يكون للنائب دور فى هذا التعيين [١] .

ولدينا كثير من الأمثلة التى تثبت ماذهبنا إليه من اضطلاع ملوك حماة بمهام تعيين كبار موظفى المملكة الحموية. ومن ذلك ماقام به الملك المظفر محمود صاحب حماة من إعطاء ابن عمه عماد الدين إسماعيل إمرة طبلخاناة فى سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٢م، وكان الملك المؤيد إسماعيل أمير عشرة فى ذلك الحين [٢] .

كذلك ولى الملك المظفر محمود قاضى القضاة جمال الدين أبو عبد الله . محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصل الحموى، مؤرخ بنى أيوب المشهور، والمتوفى سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م [٣] فى قضاء الشافعية بحماة. وكان المذكور يعيش بدمشق حين طلبه الملك المظفر منها ليتولى القضاء فى مملكته [٤] .

كذلك ولى الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل فى سنة ٧٢١هـ/ ١٣٢١م فى قضاء الحنفية قاضى القضاة نجم الدين عمر بن محمد بن أبى جرادة العقيلى. المعروف بابن العديم، وظل فى وظيفته بحماة إلى حين وفاته فى سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٣م [٥]، وذلك بعد أن ترك أثراً طيباً فى نفوس أهل

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٤ ص١٨٤ - ١٩٢، ٢١٧ - ٢٢٦ .

(٢) ابن الوردى : تتمة المختصر، جـ٢ ص٣٤٠ .

(٣) عن ترجمته انظر الذهبى: العبر ، جـ٣ ص٣٩٠، أبو الفدا: المختصر ، جـ٤ ص٣٨، ٥٣٩ .

(٤) ابن حبيب : تذكرة النبيه ، جـ١ ص٢٠٦، ٢٠٧ .

(٥) عن ترجمته انظر : ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ٣ ص١٨٩ رقم ٤٥٣.

حماة ومليكها المؤيد إسماعيل وابنه الملك الأفضل محمد، وكان الأول يثنى عليه كثيراً، وقد رثاه ابن الوردى، قائلاً :

قد كان نجم الدين شمساً أشرقت بحماة للدانى بها والقاصى
عدمت ضياء ابن العديم فأنشدت مات المطيع فيا هلاك العاصى[١]

وبعد أن مات نجم الدين عمر بن العديم بسنوات قلائل آثر صاحب حماة وقتها - وكان الملك الأفضل محمد - أن لاينقطع هذا الأمر من بيت ابن العديم بحماة، فعين فى قضاء الحنفية ولده جمال الدين عبد الله بن عمر بن العديم مكان والده سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٧م، ولم يزل شاباً[٢]، بعد أن عزل بسببه القاضى تقى الدين بن الحكيم[٣]، وذلك لما رأى الملك الأفضل من تأسف الناس على ابن العديم، وفضائله وعفته وحسن سيرته[٤].

ومن الواضح مما سبق آنفاً أنه كان فى يد أصحاب حماة من ملوك بنى المظفر الأيوبيين سلطة عزل كبار موظفى المملكة، كما كان من سلطتهم توليتهم، فقد تم عزل تقى الدين بن الحكيم من قضاء الحنفية بمعرفة الملك الأفضل محمد صاحب حماة كما رأينا .

---

(١) ابن الوردى : تتمة المختصر، جـ٢ ص٤٣٢ .

(٢) عن ترجمة انظر : تقى الدين محمد الفاسى، العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين، جـ٥ ص٢٢٢ ترجمة رقم ١٥٩١، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى فى ترجمة عبد الله بن عمر بن العديم ، جمال الدين الحنفى .

(٣) هو أبو المظفر محمود بن محمد بن عبد السلام بن عثمان القيسى الحموى، الشهير بابن الحكيم الحنفى المتوفى سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٨م، ابن حبيب : درة الأسلاك ص٤٠٤، تذكرة التنبيه ، جـ٣ ص٢٢٨، ٢٢٩ .

(٤) ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ٢ ص٤٥ .

وفى هذا الباب - كما نرى - لايوجد وجه للمقارنة بين ملوك حماة ونواب البلاد الشامية، فقد كان لملوك حماة خاصية انفردوا بها عن الحكام الآخرين. مما يدل على أن أصحاب حماة كانوا أعلى شأناً من أن يكونوا نواباً، أو أن يكونوا ملوكاً بالألقاب فقط[١] .

٦ - **النزول بمناظر الكبش :**

علمنا فيما سبق أن الكبش كان قصراً ملكياً منيفاً، تأنق فى بنائه الملك الصالح نجم الدين أيوب المتوفى سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م، على جبل يشكر ، وكان يشرف من موقعه على بساتين ، ومناظر رائعة الجمال، حتي سمى القصر لذلك بمناظر الكبش. ومن الواضح أن مناظر الكبش قد أنشئت لتكون متنزهاً ملوكياً لملوك بنى أيوب[٢].

فلما جاء العصر المملوكى أنزل سلاطين المماليك فى مناظر الكبش بعض خلفاء بنى العباس فى مصر ، ثم أصبحت مقراً ينزل فيه ملوك حماة عند زياراتهم للديار المصرية . وكان ذلك تكريماً لهم وتقديراً لموقعهم .

وظلت مناظر الكبش مقر ضيافة أصحاب حماة عند زياراتهم لمصر حتى النصف الأخير من ملك الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة، ففى سنة ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣ م هدمها الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ثم

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى ، جـ٤ ص١٨٤ - ١٩٢ .

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص١٣٣، ١٣٤ .

بناها بناء آخر وزادها جمالاً وعظمة، وعمل فيها عقب بنائها زواج ابنته الكبرى من ولد الأمير أرغون نائب السلطنة بالديار المصرية[١].

وهكذا كانت مناظر الكبش مقراً ينزل فيه الخلفاء والملوك، وخاصة ملوك حماة، ولم يكن ليسمح فى هذا الزمان بنزول أحد من النواب بمناظر الكبش. فلما ذهب عصر الناصر محمد بن قلاوون، وجاء عصر أولاده ، الذى سيطر فيه كبار الأمراء على مقاليد الحكم، دون سلاطين المماليك فى كثير من الأحيان أتخذها حينئذ بعض كبار الأمراء سكناً لهم[٢] .

٧ - وجود نواب سلطنة لأصحاب حماة :

كذلك كان هناك فرق واضح بين أصحاب حماة، ونواب البلاد المملوكية؛ وذلك فى مسألة وجود نائب سلطنة مع وجود الملك فى حماة. كان ينوب صاحب حماة - كما هو واضح - عند غيبته، أو يقوم بتنفيذ الأوامر الملكية عند وجوده، وعلى سبيل المثال كان الأمير مبارز الدين أقوش المنصورى، مملوك الملك المنصور صاحب حماة نائب سلطنة للملك المنصور، وتوفى المذكور في سنة ٦٧٢هـ/١٢٧٣م[٣] .

---

(١) هو الأمير عمر بن أرغون النائب. وكان أحد كبار المماليك فى عصر أولاد الناصر وتوفى سنة ٧٧٣هـ، ابن حجر: الدرر الكامنة، جـ٣ ص١٥٤ رقم ٣٦٤، المقريزى: السلوك ، جـ٢ ص٥٣٦ .

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص١٣٣ ١٣٤ .

(٣) أبو الفدا: المختصر ، جـ٣ ص٢٠٦، جـ٤ ص٨، العينى : عقد الجمان، جـ٢ ص١٢٧، ١٢٨ .

وكان صاحب حماة يماثل فى هذا الشأن السلطان المملوكى؛ إذ كان أيضاً للسلطان نائب سلطنة بالديار المصرية، وذلك لتخفيف بعض أعباء الملك عن كاهل السلطان، ويطلق عليه النائب الكافل، وأيضاً كافل الممالك الإسلامية(١).

وهكذا فبينما وجد للسلطان ولصاحب حماة نائب سلطنة ينوب عنهما لم يوجد لنواب الأقاليم المملوكية نواب آخرون ينوبون عنهم؛ إذ كانوا هم فى حد ذاتهم نواب سلطنة فى بلادهم، وأعلى سلطة بها. وكان كبير الحجاب فى هذه البلاد يقوم مقام النائب أثناء غيابه أو عزله(٢).

ومعنى ذلك أن صاحب حماة كان فى خدمته، ويعمل تحت سيادته نائب سلطنة، يماثل فى رتبته العسكرية رتبة بعض نواب النيابات المتوسطة فى البلاد المملوكية وتقل عن رتبة النواب الكبار؛ إذ أن أعلى رتبة عسكرية فى حماة كان لايتجاوز طبلخاناه(٣) .

ومن هذا تفوق أصحاب حماة بوضوح علي كبار نواب البلاد المملوكية، ولم يكن يماثلونهم فى هذا الشأن بأى وجه من الوجوه ، بل أنهم ماثلوا السلاطين - كما رأينا - فى هذا الأمر .

وبالإضافة إلى ماتقدم من العلامات الدالة على أن أصحاب حماة كانوا ملوكاً لانواباً ، نجد أيضاً أنهم كانوا يختلفون عن نواب البلاد المملوكية فيما كان يتكرم بها السلاطين من تشاريف وخلع، وإنعامات ومنح. وقد رأينا ذلك جلياً فيما سبق أثناء عرضنا لفصول هذا الكتاب(٤) .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٤ ص١٦، ١٧ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٤ ص١٨٥، ٢١٨ .

(٣) ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ٢ ص٣٤٠، القلقشندى : صبح الأعشى جـ٤ ص٢٣٧ .

(٤) زيادة على ماسبق انظر : الملابس المملوكية ص١٠٥، ١٠٦ .

ماهية أصحاب حماة:

بعد أن استعرضنا دلالات النيابة والملك فى أصحاب حماة بشكل مكثف، ووازنا بين الدلالتين من أوجهها المختلفة؛ أرى أن أصحاب حماة من ملوك بنى المظفر الأول عمر بن شاهنشاه الأيوبى، لم يكونوا نواباً، ولامساوين لهم، بل كانوا أكبر قدراً ، وأعظم شأناً من أكابر النواب بالبلاد الشامية. ولانستطيع أن ندعى فى نفس الوقت أنهم كانوا موازين لسلاطين المماليك، إذ كان بين الفريقين أيضاً بون كبير؛ ذلك لأنه لم يكن هناك حدود لسلاطين المماليك لسلطتهم أو لصلاحياتهم فى حكم البلاد فى الداخل والخارج ، بينما كان من الواضح أن أصحاب حماة لم تكن لهم صلاحيات خارجية نهائياً ، وإن اكتسبوا كثيراً من الصلاحيات والإرادة الخاصة فى حكم مملكتهم داخلياً، والتى لم يتطاول إليها كبار النواب فى النيابات المملوكية فى نفس الوقت .

ويتضح من ذلك أن أصحاب حماة لم تكن سيادتهم فى حكم مملكتهم كاملة بل كانت هذه السيادة ناقصة ، إذ بينما كان لأصحاب حماة غالباً مطلق الحرية والحركة فى حكم مملكتهم فى الداخل ، لم تكن لهم حرية الحكم والحركة خارجياً، فقد كانت خيوطها جميعاً فى يد سلاطين المماليك، وهذا النظام فى حكم بعض البلاد هو مايعبر عنه الآن بالحكم الذاتى، ولهذا النظام فى حكم البلاد وجود حتى الآن فى العصر الحاضر، ومن هنا انطبق على مملكة حماة ماورد فى كتاب «صبح الأعشى فى صناعة الإنشا» فى باب المكاتبات. فقد ورد فيه بعنوان رئيسى :

الصنف الثانى

«ألقاب الملوك المستقلين بصغار البلاد»

ثم قال: «كما كان صاحب حماة فى الدولة الناصرية محمد بن قلاوون»[١] .

ومن هنا لم يكن ماذهب إليه العلامة شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى من أن ملوك حماة كانوا على رسم النواب وإن لقبوا بألقاب الملوك صواباً كله. فقد جانبه الصواب فى بعض قوله على مدى سلطات أصحاب حماة؛ ذلك لأنهم لم يكونوا فى الميزان - كما رأينا - مساوين للنواب فقد كان لهم حقوق أوسع وأكثر من حقوق كبار النواب فى البلاد الشامية كما اتضح ذلك فى حينه. بدليل أن بعض كبار المماليك تمنوا حكم حماة على قاعدة أصحابها من ملوك بنى المظفر الأيوبيين، أو حكم نيابة من نيابات الشام حسب قاعدة حكم أصحاب حماة .

ومن ذلك ماحدث من السلطان الملك حسام الدين لاجين ، الذى تسلطن بالديار المصرية ، بعد عزل السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى فى أوائل سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م[٢]. حين أراد إبعاد الملك الناصر محمد بن قلاوون؛ الذى كان قد عزل بالسلطان كتبغا إلى الكرك، وذلك خوفاً من بقائه فى العاصمة؛ ليخلو له الجو بها. فقد حدث أن قال السلطان لاجين للملك الناصر، حتى يغريه بالذهاب إلى الكرك : «لو علمت أنهم يخلوك سلطاناً - يقصد كبار المماليك - والله تركت الملك لك، لكنهم لايخلونه لك.وأنا مملوكك ومملوك والدك أحفظ لك الملك، أنت تروح إلى

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٦ ص١٢٥ .

(٢) ابن حبيب : تذكرة النبيه ، جـ١ ص١٩٤ .

الكرك إلى أن ترعرع ، وتترجل، وتتخرج وتجرب الأمور ، وتعود إلى ملكك، بشرط أن تعطينى دمشق ، وأكون بها مثل صاحب حماة فيها »[١] .

ومن الواضح دون مراء من خلال حديث السلطان لاجين، أنه كان يدرك ما لأصحاب حماة من ميزات عظيمة فى حكم مملكتهم، لايرقى إليها نواب البلاد الشامية، ولاحتى نائب دمشق أكبر النيابات فى الدولة المملوكية .

كذلك حين قدم الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى القاهرة من دمشق بمجموع الثوار فى سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، مطالباً بسلطنته التى كان قد إعتزل عنها وأقام بالكرك؛ نتيجة لتسلط كل من بيبرس الجاشنكير - الذى انتهز الفرصة وجلس على كرسى السلطنة إثر ذلك - والأمير الكبير سلار نائب السلطنة . عرض السلطان بيبرس وقتها على السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون - بعد أن فقد الأمل فى بقائه فى السلطنة - تنازله عن السلطنة فى مقابل أن يعطيه الملك الناصر الكرك، أو حماة ، أو صهيون[٢].

ولاشك أن اختيار بيبرس الجاشنكير لهذه البلاد الثلاثة دون غيرها؛ ليكون نائباً فى إحداها ، لم يكن اختيار، عشوائياً ، فمما لاشك فيه فى أنه كان يدرك جيداً مالهذه النيابات من ميزات، وإلا ماكان يقع عليهن اختياره، وذلك بالرغم من وجود نيابات أكثر إغراء من هذه النيابات الثلاث .

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ١ ص٨٣٢ .

(٢) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ص٧٢.

فحماة كما علمنا سابقاً كانت لها سيادة داخلية قبل أن يليها التراب، وعدمت هذه السيادة فى غيرها من البلاد، والكرك أصبحت مقراً فى غالب أحوالها فى عصر سلاطين المماليك للملوك المعزولين، أو أولاد الملوك السابقين[١]، ولو تتبعنا المقيمين بها منذ عصر الظاهر بيبرس حتى عصرالناصر محمد بن قلاوون لرأينا ذلك فى وضوح، أما صهيون فيبدو أن تحصيناتها القوية والمتتالية قد أعطتها ميزة الأمان عن سائر النيابات الأخرى[٢].

ويبدو أن السلطان بيبرس الجاشنكير كان يمهد لنفسه مسبقاً، حين أصدر قراره بإطلاق يد الأمير قبجق نائب حماة في نيابته، حتى يصبح من سلطته التولية والعزل - كما كان فى عهد أصحاب حماة من ملوك بنى المظفر - وذلك قبل أن تصبح حماة نيابة إثر وفاة ملكها المظفر محمود بن محمد الأيوبى سنة ٦٩٨هـ. لكن السلطان الملك بيبرس لم ينل ماكان يرجوه ويتمناه بعد أن فقد السلطنة، حيث قبض عليه وقتل بين يدى السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى ليلة الخميس الخامس عشر من ذى القعدة سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م[٣] .

---

(١) أقام بها أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى، والناصر محمد بن قلاوون مرتين، أبو الفدا: المختصر ، جـ٤ ص١٢، ١٣، ٣٤، ٥٤ .

(٢) انظر عن تحصينات صهيون ، صفى الدين عبد الحق: مراصد الاطلاع ، جـ٢ ص٨٥٩ .

(٣) المقريزى : السلوك، جـ٢ ص٨٠، ٨١.

وهكذا تمنى الملك المظفر بيبرس الجاشنكير حين فقد السلطنة أن تعطى له نيابة ذات ميزة تعود عليه، وتجعله نائباً متميزاً عن غيره من النواب، ويكفيه مافقده من ملك وسلطنة .

إذاً .. بعد مارأيناه آنفاً - من تهافت كبار المماليك ممن كانوا ملوكاً وسلاطين وأمراء فى حكم مملكة حماة، أو غيرها ، حسب قاعدة أصحابها من بنى المظفر عمر بن شاهنشاه الأيوبى - لم يعد هناك مجال للشك فيما ذهبنا إليه، من أن أصحاب حماة كانوا غير النواب وفوقهم، وإن لم يبلغوا في العصر المملوكى درجة سلاطين المماليك بالديار المصرية. ووضحت بذلك دون شك أو غموض ماهية أصحاب حماة .

الخاتمة

وبعد .. فقد إنتهى فصول هذا الكتاب، الذى رحلنا معه تسعاً وسبعين سنة؛ وذلك عبر متن علاقات فريدة من نوعها ونادرة فى بابها، والتى ربطت بين كل من ملوك بنى المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبى بحماة، وبين سلاطين المماليك فى الدولة المملوكية الأولى بالديار المصرية والشامية، بدءاً من الملك المعز عز الدين أيبك، وإنتهاء بالملك الصغير الأشرف كجك ابن الناصر محمد بن قلاوون .

وقد التقينا خلال سفرنا الشاق بالملك المنصور الثانى ناصر الدين محمد بن محمود بن عمر بن شاهنشاه صاحب حماة، مصمم العلاقات، وصانع حبال الود بين أصحاب حماة وسلاطين المماليك، وشاهدناه عن قرب ، وهو يرسى دعائم هذه العلاقة .

والتقينا من بعده بابنه الملك المظفر الثالث محمود الذى سار على نهج والده، فى توطيد أواصر المحبة والمودة بينه وبين بعض سلاطين المماليك فى سنوات حكمه .

ثم كان لقاؤنا الثالث فى سفرنا بالملك المؤيد أبى الفدا عماد الدين إسماعيل بن على ابن المظفر الثانى محمود، والذى شاهدناه يكابد ويجاهد فى سبيل إعادة مملكة أسلافه بحماة بعد سقوطها ، ثم صاحبناه ملكاً جليلاً، زمناً طويلاً بعد نجاحه فى مسعاه، بفضل علاقته الحميمة بالملك الناصر محمد بن قلاوون .

والتقينا أخيراً فى غروب سفرنا الطويل بالملك الأفضل محمد ابن الملك المؤيد إسماعيل، وسرنا معه عبر دروب من الأفراح والأحزان حتى فاجأتنا نهايته المأساوية .

كذلك رحلنا على متن صفحات هذا الكتاب إلى ميادين الحرب والوغى لنلمس أثر هذه العلاقات بين ملوك حماة وسلاطين المماليك، فى وقت الشدة والابتلاء. وقد رأينا مدى اهتمام المماليك بدور العسكر الحموى وفروسية أصحابها؛ حتى تجلت بطولاتهم فى كثير من المعارك التى خاضها أصحاب حماة جنباً إلى جنب مع جيوش الدولة المملوكية .

ثم سرنا أخيراً فوق جسر ضيق ، وصراط حاد، بين علامات الملك والنيابة عند أصحاب مملكة حماة. حتى وصلنا آخراً إلى نهاية المطاف فى صفحات هذا الكتاب .

.. وبعد فرجائى من الله عز وجل إثر هذا السفر الشاق والطويل أن يكون قد هدانى إلى بر الأمان ، وحسن الختام .

هذا وبالله التوفيق والرشاد

والحمد لله رب العالمين

د. عبد الرحمن أبو راس

ملاحق الكتاب

ملحق رقم (١)

يوضح تسلسل حكم أسرة بنى المظفر
عمر بن شاهنشاه الأيوبى لمملكة حماة
من كتاب - صبح الأعشى فى صناعة الإنشا
لأبى العباس أحمد بن على القلقشندى
النوع الرابع

(من العهود عهود الملوك بالسلطنة للملوك المنفردين بصغار البلدان)

ويتعلق النظر به من أربعة أوجه :

الوجه الأول :

قد تقدم فى المكاتبات، فى الكلام على مكاتبة صاحب حماة أن ذلك مما كان فى الدولة الأيوبية ، ثم فى الدولة التركية فى الأيام المنصورية «قلاوون» والأيام الناصرية «محمد بن قلاوون» ثم بطل ذلك. وذلك أن السلطان صلاح الدين «يوسف بن أيوب» حين استولى على البلاد الشامية مع الديار المصرية بعد موت السلطان نور الدين «محمود بن زنكى» صاحب الشام، فرق أقاربه فى ولاية الممالك الشامية: كدمشق وحلب وحماة وحمص وغيرها واستمرت .

وكان السلطان صلاح الدين قد ولى حماة لابن أخيه تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، فبقيت بيده حتى توفى سنة سبع وثمانين وخمسمائة. فوليها بعده ابنه المنصور ناصر الدين محمد وبقى بها حتى توفى سنة سبع عشرة وستمائة. فوليها ابنه الناصر قليج أرسلان فبقى بها إلى أن انتزعها منه أخوه المظفر فى سنة ست وعشرين وستمائة ، وأقام بها إلى أن مات سنة ثلاث وأربعين وستمائة. فوليها ابنه المنصور محمد ، فبقى بها إلى أن

غلب هولاكو ملك التتار على الشام وقتل من به من بقايا الملوك الأيوبية ، فهرب المنصور إلى مصر وأقام بها إلي أن سار المظفر قطز صاحب مصر إلى الشام ، وانتزعه من يد التتار وصار الشام مضافاً إلى مملكة الديار المصرية، فرد المنصور إلى حماة، فبقى بها حتى توفى سنة ثلاث وثمانين وستمائة. فولى المنصور قلاوون ابنه المظفر شادى[1] مكانه، وكتب له بها عهداً عنه، فبقى بها حتى توفى سنة ثمان وتسعين وستمائة، فى الأيام الناصرية «محمد بن قلاوون» فى سلطنته الثانية بعد «لاچين» . فولى الملك الناصر قراسنقر أحد أمرائه نائباً؛ فلما استولى غازان ملك التتار على الشام، كان العادل كتبغا بعد خلعه من سلطنة الدار المصرية نائباً بصرخد، فأظهر فى قتال التتار قوة وجلادة، فولاه الملك الناصر حماة، وحضر هزيمة التتار مع الملك الناصر سنة اثنتين وسبعمائة ورجع إلى حماة فمات بها . فولى الملك الناصر مكانه سيف الدين قبچق نائباً، ثم نقله إلي حلب، وولى أسندمر كرجى نيابة حماة مكانه . ولما رجع السلطان الملك الناصر من الكرك نقل أسندمركرجى من حماة إلى حلب، وولى المؤيد عماد الدين إسماعيل بن الأفضل على بن المظفر عمر، مكانه بحماة سنة ست عشرة وسبعمائة على عادة من تقدمه من الملوك الأيوبية، فبقى بها إلى أن توفى سنة ثنتين وثلاثين وسبعمائة. فولى الملك الناصر ابنه الأفضل محمداً مكانه، فبقى بها حتى مات الملك الناصر فى ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة؛ واستقر فى السلطنة بعده ابنه المنصور أبو بكر. وقام بتدبير دولته الأمير قوصون.

---

(١) من الواضح أنه يعنى به المظفر محمود بن المنصور محمد.

فكان أول ماأحدث عزل الأفضل بن المؤيد عن حماة، وولى مكانه بها الأمير طقز دمر[١] نائباً . وسار الأفضل إلى دمشق فأقام بها حتى توفى بها سنة ثنتين وأربعين وسبعمائة ، وهو آخر من وليها من بنى أيوب .

وقد ذكر المقر الشهابى بن فضل الله فى "مسالك الأبصار" أن سلطانها كان يستقل بإعطاء الإمرة والإقطاعات ، وتولية القضاة والوزراء وكتاب السر وكل الوظائف؛ وتكتب المناشير والتواقيع من جهته . ولكنه لايمضى أمراً كبيراً فى مثل إعطاء إمرة أو إعطاء وظيفة كبيرة حتي يشاور صاحب مصر، وهو لايجيبه إلا أن الرأى مايراه. ومن هذا ومثله. قال : وإن كان سلطاناً حاكماً وملكاً متصرفاً فصاحب مصر هو المتصرف فى تولية وعزل ، من أراد ولاه ومن أراد عزله .

قلت: وكان للمملكة بذلك زيادة أبهة وجمال : لكون صاحبها تحت يد من هو متصف باسم السلطنة، يتصرف فيه بالولاية والعزل. على أن هذا القسم لم يتعرض له المقر التقوى بن ناظر الجيش فى "التثقيف" لخلو المملكة الآن عن مثله؛ وإنما أشار إليه المقر الشهابى بن فضل الله رحمه الله فى "التعريف" حيث قال : وأما مايكتب للملوك عن الملوك ، مثل ولاة العهود والمنفردين بصغار البلدان فإنه لاتسفتح عهودهم إلا بالخطب . وذلك أن حماة كانت فى زمنه بأيدى بنى أيوب على ماتقدم ذكره، ولذلك قال فى، "مسالك الأبصار": ومما فى حدود هذه المملكة ممن له اسم سلطان حاكم وملك متصرف صاحب حماة[٢].

---

(١) فى الأصل قطز فى المطبوع والتصحيح من المصادر الأصيلة، وراجع ص .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ١٠ ص١٨١ - ١٨٣.

ملحق رقم (٢)

يوضح تعيين أبى الفدا عماد الدين إسماعيل فى نيابة حماة من كتاب - المختصر فى أخبار البشر -

(ذكر استقراره بحماة وعودها إلى البيت التقوى ومايتعلق بذلك)

(وفى هذه السنة) توفى الحاج بهادر النائب بالسواحل الشامية فى يوم الثلاث لعشرين من ربيع الآخر ووصل مهنا بن عيسى إلى دمشق وتوجه منها إلى مصر فى يوم السبت مستهل جمادى الأولى وكان السلطان حريصاً إلى إنجاز ماوعده بأن يقيمنى بحماة وتأخر ذلك بسبب مداراته لأسندمر وغيره فلما اتفق موت الحاج بهادر ووصول مهنا بن عيسى إلى الأبواب الشريفة أعطى مولانا السلطان نيابة السلطنة بالسواحل والفتوحات لأسندمر وتصدق علىّ بحماة والمعرة وبارين وأرسل تقليد أسندمر بالسواحل مع منكوتمر الطباخى فوصل إلى دمشق فى يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الأولى وسار إلى حماة فلم يجب أسندمر المسير إلى الساحل. وامتنع من قبول التقليد والخلعة ورد التقليد صحبة منكوتمر المذكور فعاد به إلى دمشق واتفق عند ذلك موت سيف الدين قبجق نائب السلطانة بحلب فى يوم السبت سلخ جمادى الأولى فلما وصل خبر موته إلى الأبواب الشريفة أنعم السلطان بنيابة السلطنة بحلب على أسندمر موضع سيف الدين قبجق وأنعم على جمال الدين أقوش الأفرم بنيابة السلطنة بالفتوحات ونقله من صرخد إليها واستقرت حماة للعبد الفقير إلى الله تعالى إسماعيل بن على مؤلف هذا الكتاب ووصل إلىّ بدمشق التقليد الشريف بحماة صحبة الأمير

سيف الدين قجلس الناصرى السلحدار وأعطيت حماة فى هذه المرة على قاعدة النواب وكان تاريخ التقليد فى ثامن عشر جمادى الأولى سنة عشر وسبعمائة حسب المرسوم الشريف وخرجت من دمشق متوجهاً إلى حماة وصحبتى الأمير سيف الدين قجلس المذكور فى يوم الأربعاء الثامن عشر من جمادى الآخرة. وأسندمر مقيم بحماة وهو فى أشد مايكون من الغضب بسبب فراق حماة وكونى قد شملتنى بها الصدقات الشريفة السلطانية حتى أنه عزم أنه يقاتلنى ويدفعنى عنها وكان قد طلع جميع العسكر الحموى إلى لقائى والتقونى قاطع حمص ووصل إلى أسندمر مملوكه سنقر من الأبواب الشريفة وخوفه من عاقبة فعله فتوجه أسندمر من حماة ضحى يوم الاثنين المذكور ودخلت إلى حماة عقيب خروجه منها فى النهار المذكور وكان استقرارى فى دار ابن عمى الملك المظفر بحماة بعد الظهر من نهار الإثنين الثالث والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة أعنى سنة عشر وسبعمائة الموافق لسادس كانون الثانى وكان خروج حماة عن البيت التقوى الأيوبى عند موت السلطان الملك المظفر صاحب حماة فى يوم الخميس الثانى والعشرين من ذى القعدة فى سنة ثمان وتسعين وستمائه وعودها فى تاريخ التقليد وهو ثامن عشر جمادى الأولى سنة عشر وسبعمائة فيكون مدة خروجها من البيت التقوى إلي أن عادت إليه احدى عشرة سنة وخمسة أشهر وسبعة وعشرين يوماً ولنذكر جملة من أخبار حماة وقد ذكرت فى أخبار داود وسليمان فى الكتب الأربعة والعشرين التى مع اليهود ثم صارت بلدة صغيرة حتى صارت من الأعمال ثم إن اسطيتينوس ملك الروم بنى أسوار حماة فى أول سنة من ملكه وفرغ منها فى سنتين وبقيت مع الروم حتى فتحها أبو عبيدة ابن الجراح بالأمان بعد فتوح حمص وبقيت مضافة إلى حمص وتواردت

عمال الخلفاء الراشدين على حمص حتى ملكت بنو أمية وأقاموا بدمشق فتواردت عمالهم عليها ثم لما صارت الدولة لبنى العباس تواردت عمالهم على حمص أيضاً وعلى حماة وغيرهما ثم استولت القرامطة على حماة وقتلوا فيها مقتلة كبيرة من أهلها ثم ثارت لصالح بن مرداس الكلابى صاحب حلب ثم صارت للأمير سهم الدولة خليفة بن جيهان الكردى ثم صارت لشجاع الدولة جعفر ابن كلند وإلى حمص وفى سنة سبع وسبعين وأربعمائة تقدم خلف بن ملاعب صاحب حمص قلعة حماة ثم أقطع السلطان ملكشاه حماة لاقسنقر مضافة لى حلب وبقيت له إلى أن قتله تتش ثم صارت حماة لمحمود بن على بن قراجا وكان ظالماً ثم صارت حماة لطغتكين صاحب دمشق ثم صارت للبرسقى ثم لولده عز الدين مسعود بن اقسنقر البرسقى ثم صارت لبهاء الدين سونج بن بورى بن طغتكين ثم صارت لعماد الدين زنكى بن أقسنقر ثم ارتجعها منه شمس الملوك إسماعيل بن بورى بن طغتكين ثم استولى عليها عماد الدين زنكى ثم صارت حماة لنور الدين محمود بن زنكى ثم صارت لولده الملك الصالح إسماعيل بن محمود ثم صارت لصلاح الدين يوسف بن أيوب ثم أعطاها لخاله شهاب الدين محمود الحارمي بن تكش ثم صارت للملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ثم صارت لولده الملك المنصور محمد بن عمر ثم صارت لولده الملك الناصر قليج أرسلان بن محمد ثم صارت لأخيه الملك المظفر محمود بن محمد ثم ثارت لولده الملك المنصور محمد بن محمود ثم صارت لولده الملك المظفر محمود ثم خرجت عنهم فتولى فيها قراسنقر ثم زين الدين كتبغا ثم سيف الدين قبجق ثم سيف الدين أسندمر ثم صارت لمؤلف هذا الكتاب إسماعيل بن على بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب ولنرجع إلى بقية حوادث

هذه السنة أعنى سنة عشر وسبعمائة ولما قاربت حماة ونزلت الرستن ألبسنى الأمير سيف الدين قجلس التشريف السلطانى وهو أطلس أحمر بطراز زركش فوقانى وتحته أطلس أصفر وكلوته زركش وشاش رقم ومنطقة ذهب مصرى وسيف محلى بذهب مصرى واركبنى حصاناً برقياً بسرجه ولجامه ودخلت حماة بذلك وقرئ التقليد الشريف بحضور الناس وأعطيت الأمير سيف الدين المذكور أربعين ألف درهم وأوصلته بالخلع والخيول وتوجه من حماة فى يوم الأحد التاسع والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة واتفق لى شئ عجيب وهو أن مولدى بدمشق فى جمادي ووصلنى تقليد حماة بدمشق فى جمادى وأقمت بحماة وحصلت التقدمة على جارى عادة أهلى وأرسلت سألت من صدقات السلطان دستوراً بالتوجه إلى الأبواب الشريفة فرسم لى بذلك فخرجت من حماة فى مستهل شوال من شهور هذه السنة ودخلت مصر وحضرت بين يدى المواقف الشريفة يوم الثلاث مستهل ذى القعدة من هذه السنة وقدمت التقدمة في غد ذلك اليوم فشملتنى الصدقات بقبول ذلك ثم أفاض على وعلى جميع من كان صحبتى الخلع وتصدق على بالمركوب والنفقة وأعادنى إلى بلدى بحبور الحبور فوصلت إلى حماة فى يوم الثلاث ثالث ذى الحجة من هذه لسنة الموافق للسابع والعشرين من نيسان(١) .

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ٤ ص٦٠ - ٦٢ .

ملحق رقم (٣)
فى التقليد الصادر
من الناصر محمد بن قلاوون لعماد الدين إسماعيل
بملك حماة
من كتاب (المختصر فى أخبار البشر)
(ذكرى مسيري إلى مصر)

(وفى السنة) توجهت إلى الأبواب الشريفة وخرجت من حماة يوم الاثنين ثامن عشر ربيع الأول من هذه السنة الموافق للرابع والعشرين من تموز وسقت من أثناء الطريق على البريد ووصلت إلى قلعة الجبل وحضرت بين يدى المواقف الشريفة السلطانية فى الإثنين العاشر من ربيع الآخر الموافق للرابع عشر من آب ثم وصلت صبيانى وقدمت التقدمة فى يوم الجمعة خامس عشر ربيع الآخر وكان قبل وصولى قد قبض على بيبرس الدووادار نائب السلطنة وعلي جماعة من الأمراء مثل الكمالى فحال حضورى بين يديه أفاض عليّ التشريف السلطانى الأطلس المزركش على عوائد صدقاته وأمر بنزولى فى الكبش فأقمت به فاتفق بعد أيام يسيرة أن النيل وفى ونشر الخلع فى يوم الأحد الثالث والعشرين من ربيع الآخر من هذه السنة الموافق للسابع والعشرين من آب شهور الروم ورابع أيام النسئ بعد مسرى من شهور القبط واتفق فى أيام حضورى بين أيدى المواقف الشريفة إقامة المقز السيفى أرغون الدوادار فى نيابة السلطنة وقلده وأعطاه السيف وألبسه الخلعه ولما لم يبق لى شغل تصدق السلطان وأفاض على وعلى أصحابى الخلع وشرفنى بمركوب بسرجه ولجامه ثم تصدق على بثلاثين ألف درهم وخمسين قطعة من القماش ورسم أن يكتب لى التقليد بملكة

حماة والمعرة وبارين تمليكاً ولولا خوف التطويل لأوردنا التقليد عن آخره لكنا نذكر منه فصولاً يحصل بها الغرض طلباً للاختصار فمنه بعد البسملة الحمد لله الذى عضد الملك الشريف بعماده * وأورث الجد السعيد سعادة أجداده * وبلغ ولينا من تباهى ببابه ملوك بنى الأيام غاية مراده * ومنه فأصبح جامع شملها * ورافع لواء فضلها * وناشر جناح عدلها * ومنه يحمد على أنه صان بنا الملك وحماه * وكف بكف بأسنا المتطاول على استباحة حماه * ومنه ونشهد أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله أما بعد فإن أولى من عقد له لواء الولاء وتشرفت باسمه أسرة الملوك وذوى المنابر * وتصرفت أحكامه فى مايشاء من نواه وأوامر * وتجلى فى سماء السلطنة شمسه فقام فى دستها مقام من سلف * وأخلف فى أيامنا الزاهرة من درج من أسلافه إذ هو ببقائنا إن شاء الله خير خلف * من ورث السلطنة لاعن كلاله * واستحقها بالأصالة والإثالة والجلاله * وأشرقت الأيام بغرة وجهه المنير * وتشرفت به صدور المحافل وتشوق إليه بطن السرير * ومن أصبح لسماء المملكة الحموية وهو زين أملاكها * ومطلع أفلاكها * وهو المقام العالى العمادى * ابن الملك الأفضل نور الدين على ابن السلطان الملك المظفر تقى الدين ولد السلطان الملك المنصور ولد السلطان الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب وهو الذى مابرحت عيون مملكته إليه متشوفة ولسان الحال يتلو ضمن الغيب قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء إلى أن أظهر الله مافى غيبه المكنون * وأنجز له فى أيامنا الوعود وصدق الظنون * وشيد الله منه الملك بأرفع عماد * ووصل ملكه بملك أسلافه وسيبقى فى عقبه إن شاء الله يوم التناد * فلذلك رسم بالأمر الشريف العالى المولوى السلطانى الملكى الناصرى الباهرى لازالت الممالك مغمورة فى عطائه *

والملوك تسرى من ظل كنفه تحت مسبول غطائه * أن يستقر فى يد المقام العالى العمادى المشار إليه جميع المملكة الحموية وبلادها وأعمالها ومامنسوب إليها ومباشرها التى يعرضها قلمه وقسمه * ومنابرها التى يذكر فيها اسم الله تعالى واسمه * وكثيرها وقليلها * وحقيرها وجليلها * على عادة الشهيد الملك المظفر تقى الدين محمود إلى حين وفاته ومنه قلدناه ذلك تقليداً * يضمن للنعمة تخليداً * وللسعادة تجديداً * ومنه فى آخره والله تعالى يؤهل بالنصر مغناه * ويجمل ببقائه صورة دهر هو معناه * والاعتماد عى الخط الشريف أعلاه * وكتب فى الخامس والعشرين من ربيع الآخر سنة اثنتى عشرة وسبعمائة حسب المرسوم الشريف والحمد لله وحده وصلواته على محمد وآله وصحبه وسلم ثم رسم لى بالعود إلى بلدى فخرجت من القاهرة يوم الثلاثاء الثانى من جمادى الأولى من هذه السنة وسرت إلى دمشق وكان قد وصل إليها الأمير سيف الدين تنكز الناصرى نائباً واستقر فى نيابة السلطنة بها بعد جمال الدين أقوش الذى كان نائباً بالكرك وأحسن الأمير المذكور إلى وتلقانى بالإكرام ووصلت إلى حماة واجتمع الناس وقرئ التقليد الشريف عليهم فى يوم الاثنين الثانى والعشرين من جمادى الأولى الموافق للخامس والعشرين من أيلول ولما وصلت إلى حماة كان قد سافر الأمراء الغرباء منها إلى حلب فإنى لما كنت بالأبواب الشريفة استخبرنى مولانا السلطان عن أحوالى وما أشكو منه فلم أفصح له بشئ فاطلع بعلمه الشريف وحده ذهنه وقوة فراسته على تقلقى من الأمراء المماليك السلطانية المقيمين بحماة فإنهم استجدوا بحماة لما خرجت من البيت التقوى الأيوبى فاطلع السلطان على تعبى معهم وانهم ربما لايكونون وفق غرضى فاقتضى مرسومه الشريف نقلهم إلى حلب واستمرار اقطاعاتهم التى

كانت لهم بحماة" عليهم إلى أن يتجلى مايعوضهم به فتقدم مرسومه إليهم بذلك ووصل إليهم المرسوم على البريد بتوجههم إلى حلب قبل وصولى إلى حماة بأيام يسيرة فحال وصول المرسوم خرجوا من حماة عن آخرهم ولم يبيتوا بها وانتقلوا بأهلهم وجندهم وكانوا نحو أربعة عشر أميراً بعضهم بطبلخاناه وبعضهم أمراء عشرات ووصلت إلى حماة ولم يبق غير من اخترت مقامه عندى وكان هذا من أعظم الشفقة والصدقة[1] .

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر حـ٤ ص٦٧ - ٦٩ .

ملحق رقم (٤)

فى ركوب الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بشعار السلطنة من كتاب «المختصر فى أخبار البشر»

ذكر ماأولانى من عميم الصدقات وجزيل التطولات

سرت من حماة على البرية ولم يصحبنى مركوب لى ولاشئ من أدوات المسافر فتصدق على وأنزلنى عند القاضى كريم الدين فكان يبالغ فى الإحسان إلى بأنواع الأمور من الملابس والمراكيب والأكل وكان ينصب لى خاماً مختصاً بى يكفى بجميع ما احتاجه من الفرش للنوم والمأكل والغلمان المختصة بى وكان مع ذلك لم تنقطع التشاريف على اختلاف أنواعها لأخلعها على من أختار وكان السلطان فى طول الطريق فى الرواح والعود يتصيد الغزلان بالصقور وأنا فى صدقاته أتفرج ويرسل إلىّ من الغزلان التى يصيدها وتقدم مرسومه إلى ونحن نسير اننى إذا وصلت إلى ديار مصر أسلطنك وتتوجه إلى بلدك وأنت سلطان واستعفيت عن ذلك واستقلته وتألمت منه استصغاراً لنفسى وتعظيماً لاسمه الشريف أن يشارك فيه وبقى الأمر فى ذلك كالمتردد إلى أن وصل إلى مقر ملكه حسبما ذكرناه ونزلت أنا عند القاضى كريم الدين بداره داخل باب زويلة بالقرب إلى بين القصرين وأقمت هناك وتقدم مرسوم السلطان بإرسال شعار السلطنة إلىّ فحضرت الموالى والأمراء وهم سيف الدين ألماس أمير حاجب وسيف الدين قجليس والأمير علاء الدين أيدغمش أمير أخور والأمير ركن الدين بيبرس الأحمدى والأمير سيف الدين طينال أمير حاجب أيضاً وحضر من الأمراء الخاصكية تقدير عشرين أميراً وحضر صحبتهم التشريف الأطلس الكامل

المزركش والنمجا الشريفة السلطانية والغاشية المنسوجة بالذهب المصرى وعليها القبة والطير وثلاثة سناجق وعصائب وتقليد يتضمن السلطنة والجمدارية السلطانية وسلحدار بسيفين معلقين على كتفه والشاوشية وحضر جميع ذلك إلى المدرسة المنصورية بين القصرين وقدم لى حصان كامل العدة فركبته بكرة الخميس سابع عشر المحرم الموافق للثامن والعشرين من شباط بالشعار المذكور ومشت الأمراء إلى أثناء الطريق وركبوا ولما قاربت قلعة الجبل نزلوا جميعهم واستمريت حتى وصلت إلى قرب باب القلعة ونزلت وقبلت الأرض للسلطان إلى جهة القلعة وقبلت التقليد الشريف ثم أعدت تقبيل الأرض مراراً ثم طلعت صحبة النائب وهو المقر السيفى أرغون الداودار إلى القلعة وحضرت بين يدى السلطان فى ضحوة النهار المذكور فقبلت الأرض فأولانى من الصدقة مالايفعله الوالد مع والده وعند ذلك أمرنى بالمسير إلى حماة وقال يافلان لك مدة غائب فتوجه إلى بلدك فقبلت الأرض وودعته وركبت خيل البريد عند العصر من نهار الخميس المذكور وشعار السلطنة صحبتى على فرس بريد وسرت حتى قاربت حماة وخرج من بها من الأمراء والقضاة وتلقونى وركبت بالشعار المذكور ودخلت حماة ضحوة نهار السبت السادس والعشرين من المحرم من هذه السنة الموافق لثامن آذار بعد أن قرئ تقليد السلطنة بنقيرين فى خام كان قد نصب هناك ولولا مخافة التطويل كنا ذكرنا نسخته[١] .

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ٤ ص٨٧ ، ٨٨ .

ملحق رقم(٥)

فى التقليد الصادر

من الناصر محمد بن قلاوون للملك الأفضل محمد

من كتاب : صبح الأعشى فى صناعة الانشا

الوجه الثانى

(فى بيان مايكتب فى العهد؛ وهو على ضربين)

الضرب الأول

(مايكتب فى الطرة وهو تلخيص مايشتمل عليه العهد)

وهذه نسخة عهد كتب بها المقر الشهابى بن فضل الله عن الملك الناصر «محمد بن قلاوون» للملك الأفضل «محمد ابن المؤيد عماد الدين» إسماعيل بسلطنة حماة أيضاً ، فى رابع صفر سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة. وهو آخر من ملكها من بنى أيوب وهى :

الحمد لله الذى أقر بنا الملك فى أهله أهله وتدراك مصاب ملك لولا ولده الأفضل لم يكن له شبيه فى فضله، ووهب بنا بيت السلطنة من أبقى البقايا مايلحق به كل فرع بأصله ، ويظهر به رونق السيف فى نصله .

نحمده على ماأفاض بمواهبنا من النعم الغزار، وأدخل فى طاعاتنا الشريفة ملوك الأقطار . وزاد عطايانا فأضحت وهى ممالك وأقاليم وأمصار؛ نشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادة أفلح من مات من ملوك الإسلام عليها، وحرض بها فى الجهاد على الشهادة حتى وصل إليها، ومد يده لمبايعتنا عى إعلائها فسابقت الثريا ببسط يديها؛ ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذى شرف من تسمى باسمه أو مَتّ بالقربى إلى نسبه، وصرف فى الأرض من تمسك من رعاية الأمة بسببه؛ وأكرم به كريم كل قوم

وجعل كلمة الفخار كلمة باقية فى عقبه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ماناح الحمام لحزنه ثم غنى من طربه ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد ، فإننا – ولله الحمد – مما نحفظ بإحساننا كل وديعه، ونتقبل لمن أقبل من الملوك على سؤال صدقاتنا الشريفة كل ذريعة؛ ونتكفل لمن مات وهو على ولائنا بما لو رآه فى ولده لسره ماجرى، وعلم أن هذا الذى كان يتمنى أن يعيش حتى يبصر هذا اليوم ويرى؛ وكان السلطان الملك المؤيد عماد الدين – قدس الله روحه – هو بقية بيته الشريف، وآخر من حل من ملوكهم فى ذروة عزه المنيف؛ ولم يزل فى طاعتنا الشريفة على ماكان من الحسنى عليه ، ومن المحاسن التى لقى الله بها ونور إيمانه يسعى بين يديه؛ فوهبنا له من المملكة الحموية المحروسة ماكان قد طال عليه سالف الأمد ، ورسمنا له بها عطية باقية للوالد والولد؛ فلما قارب انقضاء أجله ، وأشرف على ماقدمه إلى الله وإلينا من صالح عمله؛ لم يشغله مابه عن مطالعة أبوابنا الشريفة والتذكار بولده، وتقاضى صدقاتنا العميمة بما كان ينتظره قمره المنير لفرقده؛ وورد من جهة ولده المقام الشريف، العالى، الولدى، السلطانى، الملكى ، الأفضلى، الناصرى – أعز الله أنصاره – ماأزعج القلوب بمصابه فى أبيه، وأجرى العيون على من لاتقع له على شبيه؛ فوجدنا من الحزن عليه ماأبكى كل سيف دماً، وأن كل رمح يقرع سنه ندماً؛ وتأسفنا على ملك كاد يكون من الملائك، وأخ كريم أو أعز من ذلك، وسلطان عظيم طالما ظهر شنب بوارقه فى ثغور الممالك ؛ وقمنا من الحزن فى مشاركة أهله بالمندوب، ثم قلنا : لكم فى ولده العوض ولاينكر لكم الصبر ياآل أيوب .

فاقتضت مراسمنا المطاعة أن نرقيه إلى مقامنا العالى، ونعقد له من ألوية الملك ماتهتز به أطراف العوالى؛ ونركبه من شعار السلطنة بما تتجمل به مواكبه، وتمتد به عصائبه، وتميس من العجب وتمتد رقابها بالرقبة السلطانية جنائبه؛ تنزيهاً لخواطركم الكريمة علينا عن قول لبث، وتنويهاً بقدر بيتكم الذى رفع لكم إسماعيل به قواعد البيت : لمانعلمه من المقام العالى الملكى الأفضلى الناصرى - أمتع الله ببقائه - من المناقب التى استحق بها أن يكون له عليكم الملك ، والعزائم التى قلد بها من الممالك ماتجول به الجياد وتجرى به الفلك؛ مع ماله من الكرم الذى هو أوفى من العهاد بعده، والفضل الذى اتصل به ميراث الأفضلية عن جده؛ والجود الذى جرى البحر معه فاحمرت من الخجل صفحة خده، والوصف الذى لم يرض بالجوزاء واسطة لعقده؛ والعدل الذى أشبه فيه أباه فما ظلم، والعلم الذى ماخلا به بابه من طلب: إما لهدى وإما لكرم؛ ولم يخرج من كفالة والده إلا إلى كفالتنا التى أظلته بسحبها، وحلت سماء مملكته بشهبها؛ خاطبناه كما كنا نخاطب والده - رحمه الله - بالمقام الشريف ، وأجريناه فى ألقابه مجرى الولد زيادة له فى التشريف ، وصرفنا أمره فى كل ماكان لملوك أهله فيه تصريف؛ وسنرشده إلى أوضح طريقة ، ويقوم مقام أبيه أو ليس «الناصر» هو أبو الأفضل حقيقة؛ ورسمنا بطلبه إلى (ما) بين أيدينا الشريفة لنجدد له من نظرنا الشريف مايتضاعف به سعوده، ويزداد صعوده، ويتماثل فى هذا البيت الشاهنشاهى أبناؤه وآباؤه وجدوده؛ لتعمل معه صدقاتنا الشريفة ماهو به جدير ، وترفعه إلى أعز مكان من صهوة المنبر والسرير، وتكاثر به كل سلطان وماهو إلا جحفل يسير؛ لتشيد به أركان هذا البيت الكريم، وتحيا عظامه وهى فى اللحود عظيم رميم، وتعرف الناس أن عنايتنا

الشريفة بهم تزيد على ماعهدوه لجدهم القديم من سميّنا الملك الناصر القديم.

فخرجت المراسيم الشريفة، العالية، المولوية، السلطانية، الملكية، الناصرية: لازالت الملوك تتقلد مننها فى أعناقها، ولابرحت الممالك من بعض مواهبها وإطلاقها؛ أن يقلد هذا السلطان الملك الأفضل - أدام الله نصره - من المملكة الحموية وبلادها، وأمرائها وأجنادها ، وعربها وتركمانها وأكرادها؛ وقضاياها وقضاتها، ورعاياها ورعاتها؛ وأهل حواضرها وبواديها، وعمرانها وبراريها - جميع ماكان والده - رحمه الله - يتقلده ، وبسيفه وقلمه يجريه ويجرده : من كل قليل وكثير، وجليل وحقير ، وفى كل مأمور به وأمير؛ يتصرف فى ذلك جميعه، ويقطع إقطاعاتها بمناشيره ويولى وظائفها بتواقيعه؛ وينظر فيها وفى أهلها بما يعلم أن له ولهم فيه صلاحاً، ويقيم من هيبة سلطانه مايغنيه أن يعمل أسنة ويجرد صفاحاً .

وليحكم فيها وفيمن هو فيها بعد له، ويجمع قلوب أهلها على ولائه كما كانوا عليه لأبيه من قبله؛ وليكن هو وجنوده وعساكره أقرب فى النهوض إلى مصالح الإسلام من رجع نفسه، وأمضى فى العزائم مما يشتبه(؟) بها من سيفه وقبسه .

وأما بقية مايلى من الوصايا ، أو يدل عليه من كرم السجايا؛ فهو - بحمد الله تعالى - غريزة فى طباعه ، ممتزج به من زمان رضاعه؛ وإنما نذكره ببعض مابه يتبرك، ونحضه على اتباع أبيه فإن الغاية التى لاتدرك؛ والشرع الشريف أهم مايشغل به جميع أوقاته، وتقوى الله فما ينتصر الملك إلا بتقاته؛ والفكرة فى مصالح البلاد والرعايا فإنها مادة نفقاته، واستكثار الجنود فإنهم حصننه المنيع فى ملاقاته ، ومبادرة كل منهم فى أول ميقاته ،

وولايات الأعمال لايعتمد فيها إلا على ثقاته ، وإقامة الحدود حتى لاينصت في تركـهـا إلى رقى رقـاته؛ ورعـاية من له على سلفـه خـدمـة سـابقـة، واستجلاب الأدعية الصالحة لنا وله فإنها للسهام مسابقة، وليمض في الأمور عزمه فإنه مذرب، وببسط العدل والإحسان فإنه بهما إلينا يتقرب؛ وليأخذ بقلوب الرعايا فإنها تتقلب، وليكرم وفادة الوفود ليقف بهم - لنجاح مقاصدهم - على باب صحيح مجرب؛ وليجتهد في الجهاد ، ويتيقظ والسيف مكتحل الجفن بالرقاد؛ ويهتم فإن الهمم العالية تقوم بها عوالي الصعاد ، ويقوم البريد فإن في تقويمه بقاء الملك وعمارة البلاد؛ وليقف عند مراسمنا الشريفة لتهديه إلى سبيل الرشاد، ويحسن سلوكه ليطرب بذكره كل أحد ويترنم كل حاد؛ وغير هذا من كل ماعهدنا والده - سقى الله عهده - له سالكاً ، ولازمة أموره الجميلة مالكاً؛ مما لايحتاج - مما نعرفه من سيرته المثلى - إلى شرحه، ولايدل نهاره الساطع على صباحة صبحه؛ وليبشر بما جعل له من فضلنا العميم ، ويتمسك بوعدنا الشريف أن هذه المملكة له ولأبنائه وأبناء أبنائه ماوجد كفء من نسبهم الصميم؛ والله تعالى يمدك - أيها الملك الأفضل - بأفضل مزيد، ويحفظ بك ماأبقاه لك أبوك «المؤيد» من تأييد؛ والاعتماد على الخط الشريف أعلاه، إن شاء الله تعالى[1].

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى جـ١٠ ص١٨٣ - ١٨٧ .

مصادر ومراجع الكتاب

أولاً : المصادر :

ابن إياس (محمد بن أحمد الحنفى ، ت ٩٣٠هـ/١٥٢٤م) :

١ - بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ٥ أجزاء .

تحقيق : محمد مصطفى - القاهرة ١٩٨٢ م .

ابن بطوطة (محمد بن عبد الله ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) :

٢ - رحلة ابن بطوطة - تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار - بيروت ١٩٦٠ م .

ابن تغرى بردى (جمال الدين أبوالمحاسن يوسف، ت ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م):

٣ - المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، ٦ أجزاء .

تحقيق : كل من د. محمد محمد أمين، د. نبيل محمد عبد العزيز. القاهرة ١٩٨٥ - ١٩٩٠م، .

٤ - النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ١٦ جزءاً تحقيق : مجموعة من العلماء - القاهرة ١٩٢٠ .

ابن حبيب (الحسن بن عمر، ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م):

٥ - درة الأسلاك فى دولة الأتراك

مخطوط مصور فى ثلاثة مجلدات بدار الكتب، رقم ٦١٧٠ح،

٦ - تذكرة النبيه فى أخبار المنصور وبنيه، ثلاثة أجزاء تحقيق: د. محمد محمد أمين - القاهرة ١٩٧٦ - ١٩٨٦م .

ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أحمد بن على ، ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م):

٧ - الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، ٤ أجزاء - بيروت . بدون .

ابن شاكر (محمد بن شاكر الكتبى، ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م) :

٨ - فوات الوفيات - جزءان .

تحقيق : محمد محيى الدين - القاهرة ١٩٥١ م .

ابن العماد (عبد الحى بن أحمد الحنبلى، ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م) :

٩ - شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، ٨ أجزاء . القاهرة ١٩٣١ - ١٩٣٣م .

ابن الفرات (محمد بن عبد الرحيم، ت ٨٠٧ هـ/١٤٠٤م) :

١٠ - تاريخ ابن الفرات - تاريخ الدول والملوك - بيروت ١٩٣٦ - ١٩٤٢م .

ابن كثير (الحافظ عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر، ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) :

١١ - البداية والنهاية - ١٤ جزءا - بيروت ١٩٧٧ م .

ابن واصل (محمد بن سالم، ت ٦٩٧ هـ/١٢٩٨م) :

١٢ - مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب . جـ٤ ، ٥ - تحقيق : د. حسنين ربيع القاهرة ١٩٧٢ - ١٩٧٧م .

ابن الوردى (زين الدين عمر بن المظفر، ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) :

١٣ - تتمة المختصر فى أخبار البشر - جزءان - بيروت ١٩٧٠ م .

أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل ، ت ٦٦٥هـ/١٥٦٨ .

١٤ - كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين - جزءان القاهرة ١٨٧٠، ١٨٧١م . .

أبو الفدا (عماد الدين - الملك المؤيد ، ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م):

١٥ - تقويم البلدان - باريس ١٩٤٠ م .
١٦ - المختصر فى أخبار البشر - ٤ أجزاء - القاهرة ١٣٢٥هـ .
البلاذرى (أحمد بن يحيى ، ٢٧٩هـ/٨٩٢م) :
١٧ - فتوح البلدان - ٣ أجزاء .
نشر : د. صلاح الدين المنجد - القاهرة ١٩٥٦م .
حاجى خليفة (مصطفى بن عبد الله - كاتب جلبى، ت ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٦م):
١٨ - كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون - جزءان - استانبول ١٩٤١م .
الذهبى: (الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد، ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م):
١٩ - العبر فى خبر من غبر - ٤ أجزاء .
تحقيق : أبو هاجر محمد بن السعيد بن بسيونى - بيروت ١٩٨٥م.
السبكى (تاج الدين عبد الوهاب بن على، ت ٧٧١هـ/١٣٦٩):
٢٠ - طبقات الشافعية الكبرى - ٦ أجزاء القاهرة ١٩٤٨ .
الشجاعى (شمس الدين، ت كان موجود قبل سنة ٧٥٩هـ؟:
٢١ - تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الألفى وأولاده :
تحقيق: بربارة شيفر - القاهرة ١٩٧٨ م .
الصفدى : (صلاح الدين خليل بن أيبك ، ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م):
٢٢ - الوافى بالوفيات :
نشر : جمعية المستشرقين الألمانية، بيروت ١٩٣١ - ١٩٧٣م .

صفى الدين البغدادى (عبد المؤمن بن عبد الحى ، ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م) :

٢٣ - مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ٣ أجزاء .

تحقيق : على محمد البجاوي - القاهرة ١٩٥٤، ١٩٥٥م .

الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير، ت ٣٩٠هـ/٩٠٢م) :

٢٤ - تاريخ الطبرى - تاريخ الرسل والملوك - ١٠ أجزاء- القاهرة ١٩٧٠.

العمرى (شهاب الدين أحمد بن فضل الله ، ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م):

٢٥ - التعريف بالمصطلح الشريف - القاهرة ١٨٩٤م .

٢٦ - مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار .

مخطوط مصور بدار الكتب ، رقم ٥٥٩ معارف عامة .

العينى (بدر الدين محمود بن أحمد ، ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م):

٢٧ - عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان .

جـ١ - ٤ فى العصر المملوكى - تحقيق : محمد محمد أمين - القاهرة ١٩٨٧ - ١٩٩٢م .

الفاسى (محمد بن أحمد ، ت ٨٣٢هـ/١٤٢٨م):

٢٨ - العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين .

٨ أجزاء - القاهرة ١٩٥٩ - ١٩٦٩م .

القلقشندى (شهاب الدين أحمد بن على، ت ٨٢١هـ/١٤١٨م):

٢٩ - صبح الأعشى فى صناعة الانشا، ١٤ جزءا .

نشر : محمد عبد الرسول - نسخة مصورة من الطبعة الأميرية ، القاهرة ١٩٦٣ .

٣٠ - ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر .

الجزء الأول - القاهرة ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م .

المحبى (تقى الدين عبد الرحمن بن محمد، ت ٧٨٦هـ/١٣٨٤م):

٣١ - تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف .

تحقيق : عبد الرحمن أمين صادق أبو راس .

رسالة ماجستير ، كلية اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٧٩م .

المقريزى (تقى الدين أحمد بن على ، ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م):

٣٢ - كتاب السلوك فى معرفة دول الملوك .

جـ١ - ٢ - تحقيق : محمد مصطفى زيادة - القاهرة ١٩٥٧م ،

٣٣ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - جزءان - بولاق ١٨٥٤م .

النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، ت ٧٣٣هـ/١٣٣١م):

٣٤ - نهاية الأرب فى فنون الأدب ، أجزاء من ٢٨ - ٣١ .

تحقيق مجموعة من العلماء - القاهرة ١٩٩٠ - ١٩٩٢ م .

ياقوت (ابن عبد الله الحمى ، ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م):

٣٥ - معجم البلدان، ٦ أجزاء - ليبزج ١٨٦٦- ١٨٧٠م .

ثانياً : مراجع الكتاب :

أحمد السعيد . د :

٣٦ - تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة جزءان - القاهرة ١٩٦٩م .

أحمد عبد الرازق . د :

٣٧ - البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك - القاهرة ١٩٧٩ م .

باركر (أرنست) :

٣٨ - الحروب الصليبية ،

ترجمة السيد الباز العرينى - القاهرة ١٩٦٠ .

الباز (السيد الباز العرينى) :

٣٩ - الشرق الأوسط والحروب الصليبية الجزء الأول - القاهرة ١٩٦٣م .

البغدادى (إسماعيل باشا) :

٤٠ - هدية العارفين - أسماء المؤلفين وآثار المصنفين - جزءان - استانبول ١٩٥١ - ١٩٥٥م .

البقلى (محمدقنديل) :

٤١ - التعريف بمصطلحات صبح الأعشى - القاهرة ١٩٨٤ م .

چورچى زيدان :

٤٢ - تاريخ التمدن الإسلامى :

٥ - أجزاء - القاهرة ١٩٠٢ - ١٩٠٦ م .

حسن ابراهيم :

٤٣ - تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى :

٤ أجزاء - القاهرة ١٩٧٣ م .

زامباور (ادواردفون) :

٤٤ - معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى:

جزءان - تعريب : زكى محمد حسن - القاهرة ١٩٥١ - ١٩٥٩ م .

سرور (محمد جمال الدين. د) :

٤٦ - دولة بنى قلاوون فى مصر :

طبعة دار الفكر العربى - القاهرة بدون .

سعيد عبد الفتاح عاشور . د:

٤٧ - الحركة الصليبية :

جزءان - القاهرة ١٩٦٣ م .

٤٨ - العصر المماليكى فى مصر والشام - القاهرة ١٩٧٦م .

طرخان (ابراهيم على. د) :

٤٩ - النظم الإقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى - القاهرة ١٩٦٨ م

عبد الرحمن أمين . د .

٥٠ - من قواعد تحديد الرتب فى المكاتبات السلطانية زمن سلاطين المماليك - بحث فى مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق العدد الخامس سنة ١٩٨٦م .

٥١ - الدولة المملوكية فى مصر أيام سلالة الناصر محمد بن قلاوون رسالة دكتوراه بكلية اللغة العربية بالقاهرة - سنة ١٩٨٣م .

عبد السلام عبد العزيز فهمى . د :

٥٢ - تاريخ الدولة المغولية فى إيران - القاهرة ١٩٨١م .

عبد المنعم ماجد. د :

٥٣ - نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر :

جزءان - القاهرة ١٩٦٧ م .

عمر عبد السلام تدمرى . د :

٥٤ - تاريخ طرابلس السياسى والحضارى عبر العصور حـ١ - طرابلس ١٩٧٨م .

فايد حماد عاشور . د :

٥٥ - العلاقات السياسية بين المماليك والمغول فى الدولة المملوكية الأولى - القاهرة ١٩٧٥م .

كحالة (محمد رضا) :

٥٦ - معجم المؤلفين - ١٤ جزءا - دمشق ١٩٥٧ - ١٩٦١م .

لسترنج :

٥٧ - بلدان الخلافة الشرقية - ترجمة بشير فرنسيس، وكوركيس عواد - بغداد ١٩٥٤م .

لينبول (استانلى) :

٥٨ - سيرة القاهرة - القاهرة ١٩٥٠م .

ماير (ل. أ) :

٥٩ - الملابس المملوكية - ترجمة : صالح الشيتى - القاهرة - ١٩٥٢ م .

محمد كردعلى :

٦٠ - خطط الشام ، ٦أجزاء - دمشق ١٩٢٥ م .

مراجع معاونة :

٦١ - الأطلس العربى - القاهرة ٩١ - ١٩٩٢م .

٦٢ - المعجم الوجيز ، نشر مجمع اللغة العربية - القاهرة ١٩٩٠م .

رقم الايداع ٩٣/٩٢٨٧
الترقيم الدولى.I.S.B.N
977-5101-93-X

الناشر
التركى
للكمبيوتر وطباعة الأوفيست - طنطا